عناق الرياحين

حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتـــاب: عناق الرياحين
تـأليـــــــف: رحاب محسن
تدقيق لغوي: رانيا محمد
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح
النــاشــــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع
القـطـــــع: 14*20
سنـة النشـر: 2025

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 2025 / 25545
الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 659 - 3

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-659-3

عناق الرياحين

رواية

رحاب محسن

استيقظتْ سجى لترمح عيناها في براح غرفتها التي أضاءتها أشعة الشمس الذهبية، إذ تخلَّلت الستائر المَسدَلة، وداعب دفئها وجهها المكفهر.

نهضت عن الفراش، وقامت بإماطة الستائر لتضيء الأشعة جوانب الغرفة. أبهرت أشعة الشمس عينيها اللتين لا زالتا تحملان بقايا النوم، وبات أثاث الغرفة مرئيًّا بعدما أخفته العتمة طيلة الليل.

اتَّشحت محتويات الغرفة بستار الظلمة الدامسة ليلًا، وقد خرجت الآن إلى النور.

تأملت سجى الفوضى التي لم يتسن لها ترتيبها بالأمس، وتثاءبت ضجرًا إذ سيكون عليها أنْ ترتِّبها اليوم.

دلفت أمها إلى الغرفة وألقت تحية الصباح ثم وقعت عيناها على الثياب المبعثرة، فرمقت ابنتها بنظرةٍ معاتبة، وقالت:

"إلى متى سأظلُّ أطلب إليك ترتيب أغراضك؟"

نكصت سجى رأسها لبرهةٍ خجلًا، ثم رفعته قائلة:

"سأرتِّبها يا أمي.. أعدك بذلك".

"يا لكِ من مشاغبة لا تكف عن إطلاق الوعود ثم لا تفتأ تخلفها! وينتهي بي المطاف بأنْ أقوم بترتيب أغراضك عوضًا عنك".

تنهَّدت سجى في ضجرٍ إذ كرهت نبرة العتاب التي حملها كلام والدتها.

قالت أمها حين فطنت إلى ضيقها:

"تعالي يا حلوة؛ فقد أعددت طعام الفطور".

استبشرت سجى؛ فكم تعشق طعام أمها طيِّب المذاق! خرج كلاهما إلى الردهة، وجلسا إلى طاولةِ الطعام، قامت الأم بإعداد الكعك اللذيذ، والبيض المقلي، وشطائر الجبن، وعصير البرتقال الطازج.

سال لعاب سجى ما إنْ رأت ما أعدت أمها من طعامٍ شهيٍّ، وتاقت نفسها لالتهامه دفعةً واحدة.

حمل البيض المقلي نكهة الزبد التي لطالما أحبتها سجى، وخالط الكعك رائحة برتقال حملت لها ذكريات الصبا إذ لطالما صنعت لها جدتها مثل هذا الكعك في صغرها، حفل دماغها بذكرياتٍ رائعة لا تشوبها شائبة.

بينما تتناول الطعام، تأمَّلتها أمها بينما تلتهم وجبة الفطور وقالت هازئة:

"مَن يراك يظنك لم تتذوقي طعامًا لأيامٍ مضت!"

طالعتها سجى بفم ممتلئ لدرجة لم تستطع معها التفوّه بحرف، وما إنْ ازدردت الطعام دونما مضغٍ، قالت:

"الطعام لذيذ بالفعل، سلمت يداك يا أمي".

قالت الأم:

"تريَّثي قليلًا؛ فلست في عجلة من أمرك".

وحين انتهت سجى من تناول الطعام، نهضت الأم لتتفقَّد أصيصًا وُضِع قرب النافذة، يحوي نباتات الريحان..

تحسَّست التربة وصرخت:

"رباه! كم هي جافة!"

التفتت لسجى، وقالت تلومها:
"ألم أطلب إليكِ ريَّها بالأمس؟ لماذا لم تفعلي؟"
قالت سجى في لامبالاةٍ:
"لقد نسيت.. آسفة".
قالت الأم وقد خالجها الانزعاج:
"لقد بتِّ تنسين الكثير من الأمور، لا أعلم متى تتخلّين عن إهمالك هذا!"
تأفَّفت سجى مُعرِبة عن ضيقٍ اعتراها إذ باتت أمها تلومها كثيرًا.
نفثت انزعاجها في زفيرٍ حارق، وقالت:
"لا أعلم سرَّ ارتباطك بتلك النباتات إلى هذا الحد".
جلبت الأم إبريقًا، ملأته بالماء، وشرعت تسقي النباتات، وقالت:
"ستفهمين يومًا أنَّ تلك المخلوقات تشابه علاقات البشر، سرعان ما تذبل إنْ لم تولها عناية خاصة، سرعان ما يذهب اخضرارها أدراج الرياح، فتصفَّر أوراقها، وتؤول حياتها إلى الانتهاء إنْ لم تتعهَّديها بالرعايةِ اللازمة، تحمل تلك الأوراق بين عبقها الساحر جمال العلاقات، ورونقها الأخاذ، وتُخلِّد رائحة الرياحين العطرة محبةً، تُعَد بمثابة وقود يُبقي العلاقات تنبض بالحياةِ على الدوام".
خالجت موجة سخرية ذهن سجى إذ شعرت بأنَّ كلام والدتها يحوي قدرًا كبيرًا من المبالغة، قالت:
"أنتِ تبالغين يا أمي".
ابتسمت الأم بينما تداعب أناملها أوراق الريحان وقالت:
"ربما، ولكن الأيام ستثبت لكِ صدقَ كلامي".

ساد الصمت لبعضِ الوقت، بينما غرقت الأم في شجونها، ثم باشرت الكلام مجددًا:

"أرجوكِ ألَّا تهملي نباتات الريحان، ولا تدعي علاقاتك تذبل من جراء الإهمال، واظبي على ريِّها باستمرار، ولا تغفلي عنها، فيكون مصيرها موت مُحقَّق، حافظي على ذلك الأصيص؛ فهو صمام الأمان لعلاقاتك، لا تدعي أوراقه تصفَّر وتتداعى، بل حافظي على اخضرارها، والزمي سقياها، ولا تتركي التربة لتجف كما فعلت بالأمس، واظبي على تسميدها، ولا تحرميها محبتك".

سأمت سجى حديث أمها المُنمَّق، ونهضت من مكانها لتباشر استعدادها للذهاب إلى العمل.

فتحت الخزانة، وانتقَّت ثيابًا لترتديها، ولم تعبأ بترتيب الثياب التي خلعتها للتو.

وما إنْ ارتدت ثيابها التي تمثَّلت في قميصٍ أبيضَ، وسترةٍ سوداء، وبنطال أسود، حتى قصدت الردهة مجددًا حيث تجلس أمها. طبعت قبلة على جبين والدتها مُودِّعةً إياها، وقالت الأم:

"حفظك الله يا ابنتي".

انطلقت سجى مُسرِعة؛ خشيةً أنْ تتأخَّر، لم تولِ كلام أمها من الاهتمام الكثير بل عدته مُبالغًا به، أولت انتباهها لبلوغ العمل في الموعد المُحدَّد عوضًا عن ذلك.

وحين بلغت الشركة، قصدت مكتبها من فورها لتباشر العمل، كان لديها من العمل الكثير، فباشرت إعداد تقريرٍ طلبه مديرها بالأمس، وتوجَّب عليها تسليمه اليوم.

جعلت تقرع لوحة المفاتيح بأناملها مُحدِّثة صوتًا، أصرت على إنهاء التقرير في الوقت المُحدَّد، وأخذت تسابق الزمن لتبلغ هدفها، لم تكن لتدع شيئًا يعطِّلها عن إتمام المهمة، ونسيت أمر كوب الشاي الذي طلبته، فأضحى باردًا لا يصلح للشرب، ذابت أصوات محيطها في الخلفية، وانصب تركيزها على التقرير فحسب، دمعت عيناها إذ أنهكها التحديق بالشاشة، فجعلت تفركها، ولم تعبأ بالإنهاك الذي طالها.

جاء زملاؤها إلى مكتبها بعلةِ مشاركتها تناول الفطور، فتذمَّرتْ، وأطلقت تأفُّفا مطولًا، تعلَّلت بالتقرير الذي توجَّب عليها إنجازه، فرفضتْ مشاركتهم المرح والحديث الممتع الذي عادة ما يتجاذبون أطرافه نهارًا. ألحت وئام عليها لتذر التقرير وتشاركهم الحديث قائلة:

"هيا يا سجى، إنه الوقت الوحيد الذي يتسنى لنا فيه مشاركة أنباء شيقة تخص حياة كلٍّ منا، شاركينا وأعدك بأنك ستستمتعين كثيرًا".

أبدت سجى امتعاضًا، وقالت:

"لا وقت لدي للاستمتاع؛ ثمَّة تقرير يتوجَّب عليَّ إنهاؤه".

"دعك من التقرير اللعين، أيفوتك قطار الاستمتاع لأجل تقريرٍ تافه؟ ستنهينه في الوقت المُحدَّد، فلا تقلقي".

رضخت سجى لطلبها أخيرًا، وادَّعت الإنصات لحكاياتهم، بينما يرمح عقلها في أوديةٍ بعيدة، وبدا عليها الشرود، تفاخرت إحداهن بثيابٍ جديدة ابتاعتها، وكيف استطاعت انتقاء أبهاها شكلًا ولونًا، وخدعت البائع ليبيعها إياها بسعرٍ زهيد بَخْس، أرادت أخرى

الإعلان عن فعلٍ يفشي مهارةً أكبر، فشاركت كيف استطاعت صُنع كعكة عملاقة لتصير رائعةً، لا يعيبها شيءٌ قط، وقد أثنى الجميع على مذاقها، ثم وعدتهم بصُنع أخرى ليتسنَّى لهم تذوُّقها، ووعدتهم بأنَّ لعابهم سيسيل فور رؤيتها فضلًا عن تذوُّق طعمها الزكي، أخذت تتباهى كيف أجادت فن الطهي وأطربها اندهاشهم.

أما شاهر، فأفصح عن رحلةٍ قام بها بسيارة رباعية الدفع، فقطع وديانًا مقفرة وصحاري ممتدة على مد البصر، فقام بمغامرةٍ فريدة ولقى ذئابًا وضباعًا كادت تفتك به إذ تحلَّقت حول سيارته، وكادت تحطِّم زجاجها، فتقتحمها عنوة.

روى لهم كيف تصدَّى لتلك الوحوش الضارية بشجاعةٍ نادرة، وودٍّ لو يشاطرونه لذة اندفاع الأدرينالين، وتفاخر بتغلبه على خوفه وعودته سالمًا، أنصت كلٌّ منهم للآخر، وحاول الإتيان بمغامرة تفوق مغامرة زميله إثارةً وتشويقًا، أما سجى فلم تنصت لأيِّ حديثٍ خاضوا في تفاصيله، واكتفت بابتسامات مُقتَضبة تدعي بها الاهتمام بما يروون من أحداث يجدونها شيقةً، كانت تطالع ساعة معصمها في توتُّرٍ بين الفنية والأخرى؛ خشيةً أنْ يحين أوان تسليم التقرير في غفلةٍ منها، زاد حرصها على إنجازه في الوقت المُحدَّد من توتُّرها، ومنعها مشاطرتهم الحديث، وأخيرًا وجَّهت لها وئام السؤال:

"وأنتِ يا سجى، ألا تملكين ما تودِّين مشاركتنا به؟"

هزت سجى رأسها نافيةً، وقالت:

"معذرةً، فلست قادرةً على مواصلة الاستماع لحديثكم؛ فلدي تقريرٌ لأنجزه اليوم".

ارتبك الجميع، وكظمت غدير ضحكة كادت تتفجَّر رغمًا عنها.
قال شاهر:
"أتودِّين لو نغادر؟"
تردَّدت سجى، ونفثت توترها في زفرةٍ مطولة ثم قالت:
"أجل.. أنا آسفة".
قالت غدير مُتهكِّمة:
"أجل، يجدر بنا المغادرة؛ فذاك خيرٌ من أنْ يزعجَك حديثنا التافه، ويعطِّلك عن إتمام تقريرك بالغ الأهمية".
تلعثَّمت سجى، وقالت في ارتباكٍ جليٍّ:
"لم أقصد ذلك، ولكن.."
قاطعتها وئام:
"نعلم ما تقصدين، لا تقلقي؛ سنغادر من فورنا".
تمَّنت سجى لو أحسنت شرح موقفها، وانتقاء الكلمات التي تعرب عن أسفها، إلا أنها لم تجد وسيلة لصياغة مرادها سوى تلك الكلمات المقتضبة، التي لم يحسن زملاؤها فهمها، فانتهى الأمر بمشاعرِ خجلٍ تغزو كيانها، وشعورٍ بالذنب استقر بنفسها.
علمت أنَّه يجدر بها متابعة كتابة التقرير وتنحية مشاعرها جانبًا حتى تدرك كيف ستتصرَّف حيالها لاحقًا، تابعت كتابة التقرير مولية هدفها الاهتمام الأكبر، وجعلت تسابق الزمن لتنهيه دونما تأخير.

مضت ساعتان، حاولت فيهما العمل بجد لتنجز التقرير الذي بات مزعجًا يُقلِق راحتها، ويدفعها لإشهار شتى أدواتها بوجه عدوها اللعين وهو الزمن الذي لا ينفك يتسارع..

وفجأة ولجت إحدى زميلاتها مكتبها، وقالت:
"سجى".
لم تنتبه إلى النداء بداية فاضطرت زميلتها إلى إعادته:
"سجى!"
فزعت سجى، وصرخت بها:
"ماذا تريدين؟ لقد أفزعتِني!"
قالت زميلتها:
"المدير يريدك في مكتبه"
غمغمت سجى:
"تبًا! ماذا يريد الآن؟! لم أنتهِ من التقرير بعد".
ظنَّت أنَّه سيؤنِّبها لعدم إتمامها التقرير، إلا أنها انتبهت إلى أنَّ الوقت المتاح لم ينفد بعد.
غادرت مكتبها قاصدةً مكتب المدير، بينما اضطربت أمعاؤها، وجعلت تصدر أصواتًا تسفر عن توتر، وشعرت بحرارةٍ تغمر رأسها، فسالت قطرات العرق على جبينها، وتجمَّدت أطرافها من فرط القلق، طرقت باب المكتب فأتاها صوته يقول:
"تفضل"
دخلت والوجل يدغدغها، بينما تحاول كظم خوفها والحفاظ على تماسكها لألَّا يفطنَ المدير إلى اضطرابها العارم.
قالت بأحرفٍ ترتجف خوفًا:
"نعم سيدي".

إلا أنَّ سلوكه فاجأها إذ تلقَّاها بوجهٍ طلق، يحمل ابتسامة مُرحِّبة، ودعاها للجلوس قائلًا:

"أهلًا وسهلًا بكِ يا سجى، تفضلي بالجلوس".

جلست على الكرسي الملاصق لمكتبه، بينما تصطك أسنانها، وترتجف أوصالها.

لاحظ المدير اضطرابها، فقال ضاحكًا:

"لا داعي لكل هذا الخوف يا عزيزتي.. لا أريد رؤيتك مضطربةً هكذا".

تجاهلت سجى لطفه الزائد وحديثه الذي حمل تلميحًا لم يرق لها، وقالت محاولة الدخول بصلب الموضوع:

"أخبرتني وئام بأنك تريدني.. أيمكن أنْ تعلمني ما الأمر؟"

قال مبتسمًا في دهاء، وقد فطن إلى تهرُّبها من مغازلته:

"يا لكِ من متعجلة! على أية حال أردتُ أنْ أعلمك بأني عازمٌ على ترقيتك؛ فقد كان أداؤك في الفترة الماضية مذهلًا بكلِّ المقاييس.. ستنالين امتيازات استثنائية، وأعدك بأنَّ الأمر سيروق لكِ كثيرًا".

تهلَّل وجه سجى، ولم تصدق ما سمعت.

قالت تستوضح الأمر:

"أحقًا سيدي؟ هل أستحق ذلك حقًا؟"

قال المدير:

"بل تستحقين ما هو أكثر من ذلك؛ فقد أثبتِ جدارتك وبذلتِ جهدًا استثنائيًا.. فقط تابعي عملك الدءوب لتنالي الترقية عن جدارةٍ، عما قريب سأحتاج مساعدتك في بعض الأمور، فهل

تساعديني؟ يجدر بفتاة مميزة مثلك أنْ تكون أهلًا لثقتي، أليس كذلك؟"

"بلى سيدي.. أشكرك كثيرًا، وأعدك بأنْ أكون عند حسن ظنك".

لمعت عيناه في مكرٍ، وقال:

"أنا واثق من أنك لن تخيِّبي رجائي، عزيزتي الحلوة، ستأخذ علاقتنا منحى مختلفًا عما قريب".

لم ترتح سجى لتكراره المغازلة إلا أنها كذَّبت ظنونها، وأقنعت نفسها أنها تتوهَّم فحسب، وأنَّه يحاول أنْ يكون لطيفًا، وهذا كل ما في الأمر.

سألته:

"لم أفهم سيدي، أيمكنك الإيضاح؟"

ابتسم وجعل يفحصها بعينيه من رأسها إلى أخمص قدميها، وقد حملت عيناه نظرات جارحة لم تخطئها سجى التي استفهمت:

"أثمَّة مشكلة سيدي؟"

قال بعدما شبع هيامًا بجسدها، وتفحَّص شتى تفاصيله:

"أبدًا يا حبيبتي ذات الجمال الذي لا تخطئه عين.. كل ما في الأمر هو أنني سعيد بوجودك معنا بالشركة؛ فقد جعل وجودك للعمل طعمًا آخر، انتظري ترقيتك ما لبيِّتِ طلباتي، واحذري مخالفتها يا حلوتي، فحينها سيهوي حلمك من عل ليتحطَّم أسفل قمم النجاح الشاهقة، سيغدو مصيره وديان الإحباط الموحشة، وثقي بأنَّ ذلك لن يروق لكِ أبدًا".

احتبست الكلمات في حلق سجى الذي جف كوادٍ صخري، ولم تستطع الرد لبرهةٍ، وما إنْ أفاقت من صدمتها حتى أدركت أنه يجدر بها مغادرة الغرفة.. قالت معتذرة:

"أعتذر منك سيدي.. سأذهب لأتم التقرير".

نهض المدير من مكانه خلف المكتب، وجلس قبالتها قائلًا:

"انسي أمر التقرير.. لدينا ما هو أهم لنناقشه".

ارتبكت سجى، ولم تَدْر ما تفعل، نهضت عن كرسيها وتصبب جبينها عرقًا، وسرت رجفة في جسدها، وقالت:

"أرجو المعذرة، لدي عمل أقوم به".

ابتسم مجددًا، وقد أدرك مقصدها، وأشعره خوفها بلذةٍ هائلة.

قال:

"هكذا إذًا، تحاولين الهرب مجددًا.. لا بأس، ستعتادين منحى علاقتنا الجديد مع الوقت، ولن أسأم استمالتك مهما كلَّفني الأمر، إذ يجدر بجميلة مثلك أنْ تجد مَن يصونها، سأبقى عند وعدي بأنْ أقوم بترقيتك ما نفَّذتِ أوامري، والآن حلِّقي أينما شئت يا فراشتي الحلوة".

وجد خوفها مغريًّا، وأغواه بالتمادي في سلوكه الفاحش، عزم على امتلاكها وإخضاعها لتصرفه، أما سجى فغادرت الغرفة، وسرت قشعريرة باردة في جسدها الذي شرع ينتفض، رفض عقلها استيعاب ما جرى.. هامت على وجهها قاصدة مكتبها، وظنَّت أنها لن تهتدي إليه أبدًا، بدا الطريق إليه ضبابيًا في عقلها الذي تلقَّى لتوه صدمة بعثرت أفكاره، انفصلت عن محيطها، وشعرت وكأنما تعاصر كابوسًا مزعجًا ليس إلا، سرعان ما سيوقظها أحدهم ليغدو

ما حدث كأن لم يكن، ويبيت في مستودع النسيان، سيستحيل سرابًا عابرًا، ولن يعلق في ذاكرتها، بل سيمر مرورَ الكرام شأنه كشأن سائر كوابيسها المزعجة، وحين بلغت مكتبها حدَّقت بشاشة الحاسوب من جديد، وجعلت تقرع لوحة المفاتيح بعنفٍ فاق سابقه.

أخذت دموعها تنهمر لا بسبب تحديقها المستمر بالشاشة هذه المرة، وإنما بسبب الألم الذي شطر وجدانها نصفين، جعلت تمسح دموعها بسرعة وكأنما تريد إنكار ما حدث، حدَّثت نفسها بأنَّ الموقف برمته لم يحدث قط، وأنها ليست سوى واهمة، أبت دموعها تصديق ما همست به لنفسها، وفاقت سرعة انهمارها سرعة مسحها إياها؛ فغامت عيناها، ولم تعودا قادرتين على إبصار الشاشة، اضطرت سجى لترك الحاسوب، ودفنت وجهها بين كفيها لتخفي عبرات نجمت عن حزن وألم مروع، وخوف ساد مشاعرها وطغى عليها، فبدَّد السكينة والاطمئنان اللذين أبقت عليهما ليؤازراها في شتى المحن.

حل التيه محلهما فباتت تجهل إلى أين تتجه، وبات محيطها غريبًا مرعبًا يبث الذعر في نفسها، ويقوض اطمئنانها لينهار بنيانه الذي عكفت على تشييده سنين طوال، لزمت انهيارها لدقائق قبل أنْ تطرق وئام باب غرفة مكتبها وتستأذنها للدخول قائلة:

"سجى، أيمكنني الدخول؟"

مسحت سجى دموعها سريعًا، وأجابت بصوت فضح أمر بكائها:

"بالتأكيد، تفضلي".

لاحظت وئام بكاء زميلتها فسألتها في قلقٍ:

"ما بكِ يا سجى؟ لماذا تبكين؟"
تكلَّفت سجى ابتسامة مصطنعة، وقالت:
"لا شيء، لا شيء على الإطلاق".
فطنت وئام إلى كذب زميلتها، إلا أنها لم تشأ أنْ تضغط عليها لمعرفة ما يزعجها، قالت في محاولة لتغيير دفة الحوار:
"لماذا أرادك المدير؟"
صمتت سجى برهة بينما تلوك أحزانًا أيقظها السؤال من مرقدها، ودَّت لو تبوح لزميلتها بحقيقة ما حدث؛ علها تتخفف من حمل يثقل كاهلها، إلا أنها أعرضت عن تلك الفكرة، ولزمت الكتمان، ففتك الحزن بنفسها المتألمة، عاودت وئام السؤال:
"ما الأمر؟ هل حدث خطب ما؟"
انتشل السؤال سجى من شرودها، فقالت:
"لا.. لا شيء أبدًا غير أنه وعدني بترقية وشيكة".
تهلَّل وجه وئام، وقالت:
"أحقًا؟ يا له من أمر رائع!"
ابتسمت سجى، وسرعان ما اختفت ابتسامتها خلف ستار الأسى، لاحظت وئام تجهُّم زميلتها المفاجئ، فسألتها في استهجان:
"إذًا فما يحزنك؟ ألا يجدر بك أنْ تكوني سعيدة بأمر الترقية؟"

قالت سجى:
"بلى، أنا سعيدة بالفعل.. إنها ضغوط العمل ليس إلا".

لم تصدِّقها وئام، ولم يبدُ لها هذا السبب مبررًا كافيًا لبكائها المرير، لم يبدُ سوى حجةٍ واهية لم تنطل عليها. قالت وئام:

"حسنًا، سأمرِّرها لكِ هذه المرة إلا أني على يقينٍ من أنَّ ثمَّة خطب أشد بأسًا أضرم نيران الحزن في قلبك".

غادرت وئام مكتب زميلتها بعدما قالت:

"سأكون بالانتظار متى قررتِ البوح بما يحزنك.. كوني على يقين من أني سأتلقَّى ما تريدين قوله بآذان صاغية".

وما إنْ خرجت وئام حتى غرقت سجى مجددًا في بحرِ دموعها، الذي جرفت أمواجه ما تبقَّى لديها من سعادة بخبر الترقية.

عادت سجى إلى منزلها عقب انتهاء يوم العمل، كانت شاردة لا تكاد تبصر أمامها، لم يبدُ محيطها مألوفًا، بل بدا غريبًا، وافتقرت لشعور الأمان بين جدران منزلها، شعرت وكأنما تجهل تفاصيله، ودعاها القلق لولوج رحابه، التي تظللها أشجار سامقة ذات أوراق عملاقة تحجب شمس النهار، ولجتها سجى بخطى مترنِّحة غير واثقة من أنها تفعل الصواب. تحسَّست خطاها على الدرب المعتم، فلم يفلت من الأوراق الوارفة سوى خيط ضوء رفيع، لم تهتدِ إلى شعورها الحقيقي بالألم المبرح في خضم قلقها، بل تاهت بين مشاعر مُركَّبة من خوف وحزن لا يُحتمَل. تجاسر الخوف الممرض، واحتل طرقات دماغها، فلم تجد بُدًّا من التسليم له والانخراط في بكاء مرير يشج قلبها ويعتصره.

دخلت سجى إلى المنزل بأعين مُتورِّمة من فرط البكاء، لم تكد تبصر أمامها إلا أنها عرفت أين تقصد.. هتفت أمها:

"سجى، أهذه أنتِ يا ابنتي؟"

تقدَّمت نحو أمها، ولجأت إلى حصنها المنيع، وموطنها الدافئ، ومكانها الأثير ألا وهو حضنها الرحب الفسيح، الذي يسع شتى مشاعرها المتلاطمة، ويضمِّد جراحها المُتقرِّحة.

دست جسدها بين ذراعي أمها دونما كلمات.. لجأت إليه فرارًا من حياة ترتع فيها الذئاب بلا رادع، وتهاجم فرائسها بلا خوفٍ ولا عقاب، بحثت عن لذة الأمان طويلًا إلا أنها علمت أنَّ شعورًا دافئًا كهذا لن يستقر سوى بين ذراعي مَن جلبتها لتلك الحياة القاسية. جعلت تبكي بين أحضان مَن هيأت لها مهدًا، ورجت لها الحياة، وأطعمتها لبنًا سائغًا من ثدييها راجية أنْ يشتد عودها يومًا وتستوي، فتخوض نزال الحياة بصبرٍ وتحفُّزٍ، رجت لها الحياة الهنيئة وألَّا يكسرها خطب أو يروعها مخلوق.

ارتمت بين أحضانها تشكو صنع الحياة التي ألقت بها أمها بين رحاها، لقد كالت لها الحياة من الأذى الكثير، ولم تَعُد تطيق احتمال جورها وبطشها، تجاوبت أمها معها، وجعلت تمسح رأسها في حنانٍ دون أنَ تفهم ما تعانيه صغيرتها، فأبكاها حتى تهدَّلت جفونها. ودَّت الأم لو تحمل عنها ما ألم بها إلا أنها جهلت ما يكون بالأساس.

قالت الأم:

"ما بكِ يا سجى؟ ما الذي حدث فأحزنك إلى هذا الحد؟"

قالت سجى:

"الحياة لا تنفك تسدِّد ضرباتها المُوجعة إليَّ يا أمي، أنا أكابد وجعًا مرًّا ولست أطيق الإفصاح عنه".

"لو أنك تخبريني ما الأمر؛ فأحمل عنك ما أصابك".

"ضميني فحسب.. يكفي حضنك الدافئ أنْ يطوق مشاعري المبعثرة، ويعيد شعور الأمان إلى وجداني".

ضمتها أمها بقوةٍ، ومكثت سجى بين ذراعيها حتى خالجها النعاس.. قالت:

"سأذهبُ لأنام".

"اذهبي يا ابنتي، رغم أنه يحزنني أنْ تذهبي للفراش حاملة عبئك ذاك، أواثقة أنتِ من أنك لا تودين البوح بما جرى؟"

أومأت سجى برأسها، وابتسمت ابتسامة خافتة، تجلت فيها معاني الألم، استلقت على الفراش ودثَّرتها أمها بالغطاء، وسرعان ما غطت في نومٍ عميق.

"سجى، استيقظي يا ابنتي؛ فقد تأخَّر الوقت، ستبلغين العمل متأخرة على هذا النحو".

فتحت سجى عينيها، لتجد وجه أمها الصبوح بمحياها، ولتسمع نداءها الأثير لديها.. لطالما آثرت نداء أمها على شتى الأصوات، وانتبهت إلى أنها لم تستيقظ فور رنين منبهها، فاضطرت أمها لإيقاظها.

شعرت بخوفٍ يزحف إلى وجدانها، ويرجوها ألَّا ترتاد العمل اليوم خشيةً أنْ يتكرَّر ما حدث بالأمس.

طالعت المنبه فوجدت أنَّ الوقت قد تأخر بالفعل، فنزعت الغطاء عن جسدها، ونهضت من فورها؛ لتباشر استعدادها للعمل، تجاهلت خوفها الهائل، وحاولت إيقاف زحف المخاوف

المُربكة كما أسراب النمل، لم تستطع منعها كليًا؛ فتأهَّبت، وارتدت ثيابها بينما تسمع طنين مخاوفها في الخلفية.

كان الطنين مزعجًا إلا أنها تجاهلته في محاولة لطمأنة نفسها إلى أنَّ الأمر لن يتكرر اليوم، وأنه لن يتجاوز كونه موقفًا مزعجًا مثيرا للربكة.

أتمت وضع ثيابها وقبَّلت جبين أمها التي قالت:

"صحبتك السلامة يا عزيزتي.. لا تخافي؛ ستكون الأمور على ما يرام".

لمعت الدموع في عيني سجى، فبدتا كما لؤلؤتين ترصعان وجهًا باهتًا أنهكه البكاء، غادرت سجى تحمل أوزار مخاوف ثقيلة على ظهرها المحني، وقلبها المُتخَم بالأحزان.

قصدت مكتبها دون أنْ تعبأ بإلقاء السلام على زملائها في الغرف المتاخمة لمكتبها. جلست إلى حاسوبها في محاولة منها لردم حفر قام جنود الخوف والحزن بحفرها، فغدت أخاديد عميقة في نفسها تكيل لها الألم مرارًا، وتجعل أوقاتها عصيبة يكسو وجهها الاكفهرار.

شرعت تهيل التراب على الفوهات الغائرة؛ فلم تجد بُدًّا من الانهماك في العمل، لتجبر طنين المشاعر على الصمت النسبي.

ستبقي صوته خفيضًا، فلا يمنعها من الانتباه لواجباتها وممارسة عملها الدءوب.

طرقت وئام الباب، فالتفتت سجى لتحييها، قالت وئام:

"كيف حالك يا سجى؟ ما بك لم تلقِ علينا التحية؟"

تمتمت سجى في أسف:
"آسفة".
"هل أنهيت تقريرك البارحة؟".
أومأت سجى برأسها، وودَّت لو ينتهي الحديث سريعًا..
"لطالما وجدتك موظفة مثالية، وأظن المدير يجدك كذلك أيضًا ما دام عازمًا على ترقيتك".
رمقتها سجى بنظرةٍ حادة حتى كادت النيران تنبثق من مقلتيها، زفرت في غضبٍ، ونفثت غلها وضيقها في زفرتها الساخنة.
انتبهت وئام إلى وجود وردة حمراء على مكتب سجى، فأشارت إليها، وقالت بينما تطالعها:
"انظري، ثمَّة شيء على مكتبك".
نظرت سجى إلى حيث أشارت وئام، وأمسكت الوردة تتفحَّصها.
قالت وئام وقد علت وجهها ابتسامة ذات مغزى:
"من الواضح أنه ثمَّة مَن يهتم بأمرك".
ارتسمت ابتسامة على وجه وئام، وأعادت سجى تصويب النظرات النارية إليها، كان ثمة ورقة مطوية وملصقة إلى الوردة، فضتها فوجدتها تحمل اسم مديرها. غلى الدم في عروقها ومزَّقت الورقة من فورها، ثم ألقت بالوردة وبالقِطع المُمزَّقة في سلة المهملات.
تعجَّبت وئام من فعلها، فسألتها:
"لماذا فعلتِ ذلك؟"
صرخت سجى:
"لا شأن لك!"

خشيت سجى إنْ صارحت المدير بأمر انزعاجها من لفتة يقصد بها شرًا، وسم ناقع دسه في وردة بريئة أنْ يحرمها الترقية، أو ربما يفصلها من الشركة كليًّا، قررت ازدراد غضبها، وأنْ تلوك علكة الخزي بمفردها.. قدمت غدير إلى مكتبها لاحقًا، وقالت:

"مرحبًا سجى، بلَّغني أنه ثمَّة مَن أهداكِ وردة اليوم".

رمقتها بغضبٍ ولم تجِب.

"لديكِ حبيب إذًا، لم أعرف بالأمر سوى الآن".

لم تبرح سجى صمتها، واستمر داخلها يغلي، مصدرًا فقاقيع ترتفع للأعلى، وحركة تجعله يوشك على الانفجار.

قالت غدير:

"لست أفهم لماذا تخفين عنا مثل هذه الأمور.. نحن زملاؤك، ونرجو لك السعادة بلا شك، لا نعرف الضغينة، ولن نرجو لك سوى الخير".

لم تعُد سجى قادرةً على كظم غضبها لوقتٍ أطول، وصرخت بها:

"ليس لدي حبيب، ولم يحدث شيء مما تزعمون، دعوني وشأني فلست أطيق إشاعاتكم المغرضة، حدِّثيني إلى أي مدى أفشت وئام الحديث؟ كم شخصًا حدَّثته بالأمر؟ وهل أبلغت الشركة بأسرها؟ ليتكم تكفون عن التدخل فيما لا يعنيكم! ليتكم تكفون ألسنتكم عن الخوض بخصوصيات لا شأن لكم بها! وإنْ أراحكم إفصاحي عن الحقيقة، فليس لدي حبيب مطلقًا، ولست أعلم مَن قام بوضع الوردة السخيفة على مكتبي، وها قد أودعتها سلة النفايات! هل ارتحتم الآن؟"

جفلت غدير، ولم تستطع التفوُّه بحرفٍ.. أومأت برأسها، وغادرت الغرفة من فورها، أما سجى فغادر مارد الغضب الخاص بها قمقمه، وجعل يتمايل في نشوة على أهازيج ترنم بها الواقع المرير، نهضت من مكانها لتتجوَّل بين المكاتب، فكانت كلما مرت على اثنين من زملائها يصدرون همهمة خافتة، ويتهامسون ثم يطلقون ضحكات مكتومة، فأيقنت أنهم يتحدثون بشأنها، لم تعرف أتلومهم أم تلوم مطلق هذه الفتنة الذي جعل منها محلًا للقيل والقال.. قررت مغادرة الشركة باكرًا، فلم تعد تطيق الهمسات التي تتعلَّق بها، بينما تسبح في هواء الشركة كما غيوم ثقيلة ممطرة.

عادت سجى إلى بيتها، وقد بدت علامات الغضب جليَّة على وجهها العابس، أدارت المفتاح في القفل بيدين ترتجفان، وعانقت أنفاسها الضحلة واللاهثة غلافًا من الهدوء النسبي شكل غشاء يغلف أثاث منزلها، وما إنْ دخلت سجى المنزل حتى صاحت أمها:

"هل عُدتِ يا سجى؟"

لم تجب سجى إذ ثقل عليها التجاوب مع أيٍّ كان، وتمنَّت لو تلزم الصمت لبقية اليوم.

قصدت غرفتها تريد الاختباء خلف بابها، أرادت أنْ تلتحفَ الدثار وتغط في النوم هربًا، فلا تمطرها والدتها بوابل الأسئلة التي لم تشأ التفكير في أجوبتها.

وبينما تسرع هاربة إلى غرفتها استوقفتها أمها قائلة:

"سجى، ماذا دهاك؟ ما بكِ لا تجيبين؟"

ألجم القلق لسان سجى لبرهةٍ، ثم قالت باقتضاب:

"لا شيء، أنا مُتعَبة فحسب".

قالت الأم في غير تصديقٍ:

"ماذا جرى؟ كيف كان يومك إذا؟"

تجمَّعت الدموع في مقلتي سجى، ووددت لو ترتمي بين ذراعي والدتها، ليُذهِب حضنها عنها الألم والخوف الشديدين، إلا أنها لم تفعل، بل استحال حزنها غضبًا تسلَّل إلى نبرة صوتها، وأخذ الحديث إلى منحى جديد، قالت:

"أخبرتك أنَّ ليس ثمَّة شيء، لماذا تصرِّين على التنقيب عن المشكلات والتدخل في شئوني؟ اتركيني وشأني من فضلك".

نزعت سجى غضبها على أمها المسكينة، بهتت الأخيرة، ولم تدرِ ما تقول، إذ صعقتها كلمات ابنتها الفظة والقاسية.. وما إنْ أنهت سجى صراخها حتى أومأت أمها برأسها في حزن ثم قالت:

"حسنًا يا سجى، كما تشائين.. ولكن اعلمي أني لست ألح عليك لمعرفة ما بك سوى لأنني أهتم لأمرك".

تأفَّفت سجى ضجرًا، واندفعت إلى غرفتها، وأوصدت الباب بعنف، وما إنْ صارت وحدها حتى انفجرت في البكاء، وعلا نحيبها معربًا عن ألم طال كتمانه يمزِّق فؤادها، ويختلج بين ضلوعها لتتداعى رئتاها تحت وطأته، وتصبح أنفاسها ضحلة متعبة، طافت بخلدها كلمات الغزل التي تفوَّه بها مديرها، وجعلتها تشعر بالخزي والاشمئزاز، تعجَّبت إذ لم تجعله يلزم حدوده، لم تصرخ به ليرتدع، وإنما تجمَّدت ولم تتفوَّه بحرفٍ، أثار ذلك غضبًا وشعورًا بالخزي في نفسها المكلومة، لقد كبَّلتها الصدمة وأفقدتها القدرة على الكلام، لم يسعها سوى مغادرة الغرفة فرارًا مما قد توسوس له

نفسه بأن يفعله بعد، خشيت أنْ يتمادى أكثر، ولحقها خوفها ذاك إلى مكتبها فلم يضمر، جعلت تتخيَّل ما كان يمكن أنْ يحصل، وما كان بوسعه أنْ يفعل من تجاوزات ستجرحها بالتأكيد.

شعرت بوجود جرح غائر في نفسها لم يتسن لها تضميده، ولم تعرف لذلك سبيلًا، بدا لها أن ذلك الجرح سيرافقها ما بقيت.

"سجى، تعالي إلى هنا".

أتاها صوت أمها من خلف الباب، فاخترق حجابًا نسجته أفكارها الكثيرة والمتداخلة، تأفَّفت إذ ظنتها ستسألها الأسئلة ذاتها، أو ربما ستوبِّخها لسببٍ ما.. ودَّت لو تتجاهل النداء حتى تأتي أمها إلى غرفتها لتفصح عما أرادت إلا أنَّ شيئًا ما في صوت أمها، جعلها تترك مكانها متثاقلة، وتخرج إلى الردهة، ولدهشتها وجدت أمها جالسة على الأرض، وقد أسندت ظهرها إلى الأريكة، كانت تلهث، وقد وضعت يمناها على صدرها حيث شعرت بألم شديد، وجعل جبينها يتصبَّب عرقًا، فزعت سجى فور رؤيتها أمها على تلك الحال وهرعت إليها قائلة:

"أمي، ماذا جرى لكِ؟!"

أجابت الأم بين لهاثها بصعوبةٍ بالغة:

"ساعديني يا سجى.. سأموت!"

شعرت سجى بالهلع يقوض قدرتها على التفكير، لوهلة لم تدر ما تصنع ثم فقدت أمها الوعي، وأخذت سجى تناديها دونما فائدة.

وأخيرًا اهتدت إلى ما ينبغي عليها فعله، ركضت إلى الداخل، وجلبت هاتفها واتصلت بالإسعاف، وأثناء انتظارها لسيارة الإسعاف، جعلت تحاول إيقاظ والدتها المُلقاة أرضًا، أخذت

تتحسَّس نبضها بين الفنية والأخرى، فكان نبضها ضعيفًا، وبالكاد استطاعت تحسُّسه.

جعلت تتأكد من أنها لا زالت تتنفَّس، فتارة يخيِّل لها أنَّ أنفاسها انقطعت، وتارة تجد تنفُّسها خائرًا، تشبَّثت المسكينة بأنفاس واهنة هي كل ما يربطها بالحياة، وخشيت سجى أنْ تتوقف تلك الأنفاس أبدًا، وأخيرًا وصلت سيارة الإسعاف، وحضر المسعفون ليحملوا جسدًا يتعلق بخيط رفيع يصله بالحياة، خشيت سجى انقطاع الخيط الدقيق، وشرعت تردِّد الصلوات خشيةً أنْ تفارقها أمها، عانت خوفًا لم تختبره سابقًا، وبلغ أوجه حين رأت أمها ملقاة على الأرض عالقة بين براح الحياة وسراديب الموت، تكاد تجتاز الخط الفاصل بينهما، فينقلها ذلك من سعة أيامها التي لطالما زيَّنها وجودها إلى ضيق اللحود الذي تجهل عنه كلَّ شيءٍ.

جرى نقل الأم إلى المشفى، وتم إيداعها الرعاية المركزة، هرعت سجى إلى الطبيب لتستفهم عن حالة أمها، فقال:

"حالتها حرجة.. سنبذل ما بوسعنا إلا أنَّ الجلطة التي أصابت قلبها قد تكون قاتلة".

استقبلت أذنا سجى كلامه ولفظتاه، فارتد خارجًا، أصرَّ عقلها على خطأ ما بلغه من معلومات، طمأنها إلى أنَّ أمها ستعيش رغم أنف الظروف، لن تفارقها وسيتسنى لها الاعتذار منها، وعزمت على الإحسان إليها من الآن فصاعدًا، لن تغضبها، ولن تتأفَّف من طلباتها بعد اليوم.

قالت مخاطبة الطبيب:

"أيمكنني رؤيتها؟"

فقال:

"لا بأس".

دخلت الرعاية المركزة لتجد أسرَّة تحمل أجسادًا لا زال يربطها بالحياة خيط رفيع يكاد ينقطع، تم توصيل بعضها إلى جهاز التنفس الاصطناعي، إذ لم يعد قادرًا على التنفس بمفرده، وبات من الضروري أنْ يغذيه الجهاز بأنفاسٍ، عوضًا عن أنفاسه الواهنة، أحسَّت وكأنما ولجت مقبرة للأحياء، يصل إلى مسامعها صفير الأجهزة بين صمت مُطبَّق لا يقطعه شيء.. شابه الصمت المخيف صمت القبور ووجدت فيه نذيرًا لكارثة وشيكة، ستقع الكارثة ما إنْ يلفظ أحد المرضى أنفاسه، وسيكون ذلك مفجعًا لذويه بلا شكٍ، ودَّت ألَّا يكون مصير كهذا بانتظارها، وأصرَّ عقلها على التشبُّث بأنَّ أمها سرعان ما ستتعافى، بلغت سرير أمها وجلست إلى جوارها، ثم قالت:

"أمي.. كيف حالك الآن؟"

نظرت الأم في عينيِّ ابنتها، وتكلَّفت ابتسامة متعبة، ثم قالت بين أنفاسها الخائرة:

"سجى؟ أهذه أنتِ يا ابنتي؟"

قالت سجى:

"أجل يا أمي.. لا تخافي؛ فستكونين على خيرٍ ما يرام.. ستمضي هذه الوعكة، وسنعود إلى البيت".

قالت الأم في وهنٍ:

"لا أظنُّ ذلك يا ابنتي، أعتقد بأنَّ أجلي قد حان".

صرخت سجى فزعة:

"لا تقولي ذلك، ستكونين بخير ولن يصيبك مكروه أبدًا".

قالت الأم بصوتٍ يجاهد ليبقى مسموعًا:

"اسمعيني يا سجى؛ فليس لدينا من الوقت الكثير.. أصيص الرياحين.. إنه لكِ، فاعتني به جيدًا، إنه حصن علاقاتك، فلا تدعيها تذبل، العلاقات تحتاج إلى السقيا مثلما تحتاجه نباتات الريحان، فيفوح عبقها على الدوام".

جعلت تسعل واضطرب تنفُّسها، فقاطعتها سجى قائلة:

"لا تجهدي نفسك بالحديث، أعدك بأنْ أهتم بالأصيص؛ فكوني مطمئنة".

ابتسمت الأم، وقالت:

"سأقضي مرتاحة هكذا.. وداعا يا ابنتي".

وما إنْ نطقت كلماتها الأخيرة حتى لفظت أنفاسها.. صرخت سجى:

"أمي! أمي، لا تتركيني وحدي! أمي، أنا آسفة! أعدك بألَّا أزعجك بعد اليوم؛ سأرتِّب أغراضي، وسأفعل كلَّ ما يحلو لك، سأغدو فتاة مطيعة، ولن أثير غضبك ولكن لا تتركيني! لا ترحلي أرجوك!"

استغرقت سجى في البكاء والصراخ وهرع الأطباء إلى الغرفة إثر سماعهم صوت صراخها، تحسَّس الطبيب نبضها وتطلعت سجى إلى وجهه بأعين متوسلة.

هز الطبيب رأسه نفيًا، وأرادت إحدى الممرضات اقتياد سجى إلى خارج الغرفة حتى يتسنى لهم إجراء الإنعاش القلبي الرئوي. قاومت سجى ولم تشأ ترك أمها، وجعلت تردد:

"أمي! ما الأمر؟! ما بك صامتة هكذا؟"

إلا أنَّ الممرضة أفلحت في اقتيادها خارجًا في نهاية المطاف، كان وقع الصدمة فادحًا؛ فالخطب جلل، والفقد مروع بحق، جعلت صفارات الإنذار تدوي داخل عقلها، وتساءلت كيف لها أنْ تتابع حياتها دون وجود أمها.

أطلقت تأوها مرًا، وهاجت مواطن الألم لديها، فانتبهت إلى وخز الفقد الذي جرعها بدوره كأسه المر، ولم يرحم ضعفها وصدمتها المفجعة.

وقفت خارجًا تنتظر خبرًا مفرحًا يسوقه إليها أحد الأطباء فينفي حقيقة أدركتها للتو، وجعلت من لحظاتها قرب الباب كابوسًا مقيتًا، انتظرت على أحر من جمر أنْ يخبرها أحدهم بأنَّ أمها لم تمُت، وأنهم أفلحوا في استعادتها.

طال انتظارها أو ربما شعرت بأنَّ الوقت لا يمضي، انهكت تمامًا، ولم تعد ساقاها قادرتين على حملها إلا أنها لم تبرح مكانها قرب الباب.

مرَّت دقائق ثقيلة قبل أنْ يخرج إليها الطبيب قائلًا:

"للأسف، لقد فارقتْ الحياة".

هزَّت رأسها في غير تصديق.. لم تستطع استيعاب حقيقة ما جرى، وخالت أنها ربما تحلم فحسب، تمنَّت لو يُوقِظها أحدهم، فلا يمكن لما حدث أنْ يكون سوى خيال أو كابوس مقيت.

أيقنت أنَّ خيالها الجامح هو ما افتعل هذا الموقف برمته، وأنَّ أمَّها ستصحبها إلى المنزل ما إنْ ينتهي الكابوس.

دخلت إلى الغرفة مجددًا، ودنت من سرير أمها، جعلت تهزها قائلة:

"لنعُد إلى المنزل يا أمي.. أرجوكِ لا تتركيني وحدي".

وحين لم تتلقَّ جوابًا، قالت:

"أأنتِ غاضبةٌ مني؟ ألهذا لا تجيبين؟ حسنًا، أنا آسفة.

صدِّقيني، لن أُغضِبك بعد اليوم، ولكن سامحيني.. امنحيني فرصةً أخيرة يا أمي، وأعدك بأنْ أُحسِن استغلالها

أمي، أجيبي أرجوكِ".

تطلَّعت إلى وجه أمها الشاحب، وعينيها الشاخصتين، وفمها المنفرج قليلًا، مسحت رأسها بيدها، وطبعت قبلة على جبينها قائلة:

"لماذا لم تخبريني بأنَّ الوداع سيحين سريعًا؟ لماذا أصرَّ الزمان على سرقة لحظاتنا الدافئة؟ لماذا رحلتْ وتركتني لأواجه الحياة بمفردي؟"

طبعت قبلة أخيرة على جبينها المُتعرِّق وغادرت الغرفة.

هبطت الدرج لا تكاد تبصر درجاته إذ كانت عيناها غائمتين، لم تعلم إلى أين تذهب بل دفعها حزنها إلى أنْ تهيم على وجهها في الطرقات، أرادت الفرار من أفكار غمرت عقلها، وسبَّبت لها من الألم الكثير، ظنَّت أنَّ الجفاء الذي كدَّر علاقتها بأمها كان سببًا في مرضها ورحيلها المفاجئ.

شعرت بالذنب، ولم تدرِ ما تصنع حياله، كدَّر الذنب وجدانها وآلمها كثيرًا، تمنَّت لو يعود بها الزمن القهقري فتصلح ما أفسدته يداها. أقسمت ألَّا تعيد الكرة، ورجت عودة الماضي بلا فائدة،

وحين أدركت حقيقة ما حصل انفجرت باكية، وكادت تصدمها سيارة مسرعة إذ عبرت الطريق دونما انتباهٍ، جعلت تترنَّح بين إدراك وإنكار لحقيقة موت أمها؛ فتارة يخالجها أمل بعودتها، وتارة يموت الأمل، ويُحمَل على أعناق واقعٍ كئيب.

جلست بإحدى الزوايا تطالع ما حولها ببصرٍ شاخص، ونظرات حائرة.. لم تتوقَّف الحياة بوفاة والدتها، بل تابع كل المضي في دربه الخاص، وانكفأ على ممارسة أنشطة حياته، فلم يبطئ قط، وفجأة رنَّ هاتفها، فتطلعت إليه فإذا به والدها.

أجابت فأعلمها أنه قد عاد إلى أرض الوطن، وأنَّ خبر رحيل أمها قد بلغه للتو.

رجته قائلة:

"أحتاجك يا أبي.. أحتاجك أكثر من أيِّ وقتٍ مضى".

طمأنها إلى أنه لن يتركها مجددًا، وأنهما سيعيشان سويًّا حياة هانئة، حاول التهدئة من روعها إذ خنقتها العبرات، واستفسر عن مكانها، فلم تعِ أين تكون، حاولت إخباره بملامح المكان فطمأنها أنه سيحضر ليكون إلى جوارها، طلب إليها البقاء حيث هي، ووعدها بأنه سيحضر في الحال.

جلست سجى تنتظر قدوم والدها، وقد هدهد كلامه الحنون اضطراب قلبها الواجف، طمأنها حديثه إلى أنها لن تعاني وحدها، وأنه ثمة مَن سيعتني بها، ويشاركها مصابها الجلل. مضت دقائق الانتظار طويلة مثقلة بالترقُّب، وأخيرًا حضر والد سجى ليلتحما في عناقٍ مؤثر.

قالت سجى بين دموعها:
"اشتقتُ إليك يا أبي".
قال الأب وقد سالت دموعه بدوره:
"وأنا أيضًا، اشتقت إليكِ يا سجى، لا تخافي يا ابنتي؛ فستكون الأمور على ما يُرام".
تطلَّعت إليه بعينين متسائلتين:
"كيف وقد فارقتنا أمي؟"
قال مواسيًا إيَّاها:
"إنْ سرقت الأيام أمك فقد أبقت على أبيك، الذي يكن لكِ من الحب الكثير، أعلم أنَّ فراقها صعبٌ، ولكن ما بوسعنا أنْ نفعل سوى متابعة السير في درب الحياة، كلنا سنرحل يا سجى، سنفارق الحياة ذات يوم، وإلى ذلك الحين سيكون عليك تجاوز الأمر والمضي قدمًا.. خذي ما يلزمك من وقتٍ، ولكن لا تعلقي في متاهة الحزن ولا تجرفك أمواجه إلى جزر جرداء مقفرة".
قالت:
"ولكن كيف لي تجاوز مثل هذا الخطب المفجع؟"
قال الأب باسمًا:
"لن تضطري لفعل هذا وحدك؛ فسأكون إلى جوارك، وسنجتاز الخطب سويًّا، سيضمد مضي الأيام جرحك الغائر، سيلهيك عن ألمك المبرح، وسيجعل من طريقك أقل وعورةً، فدعي الأيام تفعل فعلها، ولا ينهكك شعور الحزن، لا تدعيه يجرفك إلى مجاهل مظلمة فتضطرب بوصلتك وتضلين السبيل".

ارتمت سجى بين ذراعي أبيها ثم قصدا المشفى لاستلام جثمان الأم المُتوفاة.

لم تصدِّق سجى أنَّ الثرى سيواري جسد أمها في غضون ساعات قليلة، ستضطر لتسليمها لمصيرها المحتم، ومثواها الأخير الذي لا مناص منه، ستفارق أمها وهي لا تملك ما يمكن أنْ تساوم به الموت ليذر أمها إلى جوارها.

كانت على يقينٍ من أنه لا يمكن مساومة الموت؛ فهو لا يتوانى عن قبض روح حانَ أجلها، ولا يتراجع عن ذلك أبدًا، أمسكت يد أمها الباردة، وحدَّقت بوجهها الشاحب منبسط الأسارير، وكأنما تودعها بنظراتٍ أخيرة ومطولة، علمت أنَّ صورة وجهها ستعلق بمخيلتها لأمد لا بأس به، وأخيرًا جرى تغطية وجهها بملاءة، وغادرت سجى الغرفة وقد تركت جزءًا من روحها داخلها، ستحمل تلك الغرفة بين جدرانها ذكرى وفاة أمها إلى الأبد، ولن تجرؤ على ولوجها مجددًا، إذ ستجد الفقد عند عتبتها، وسيبقى جوَّها مشبعًا بألمِ الفراق المبرح، ستنتهي عند بابها الذكريات الطيبة، وستستحيل الذكريات مريرة ما إنْ تخطو إلى داخلها بضع خطواتٍ.

جرى تكفين الجثة، وقام والد سجى باستلامها لتبدأ مراسم الدفن، حُمِل الجثمان على الأعناق وقصدوا المقابر، وأهالوا التراب على جسد الأم بعدما أدخلوها الحفرة الضيقة المسماة بالقبر، انهارت سجى إذ أدركت أنَّ التراب سيضم جسد أمها الذي لطالما نبض بالحياة، وأنَّ تحلُّله بات أمرًا حتميًا، فقدتها إلى الأبد فلا رجعة في أمر رحيلها، لن يبقى من وجودها سوى ذكريات تهمس بأذنها، فتحمل إلى خلدها مشاعر الحنين والأسى، كما ستطفو صور لحظات جمعتهم إلى سطح مخيلتها فتهيج لوعات وأمنيات

مستحيلة خائبة الرجاء بعودة الماضي بشتى تفاصيله، وبما يحمل من قصص جمعتهما، وكانتا بطلتيها.

انتهى كلُّ شيء مع انتهاء مراسم الدفن إلا أنَّ سجى قامت بجر الذكريات إلى المنزل، شعرت وكأنما هوت من ارتفاعٍ شاهق إلى وادٍّ موحش تسكنه الذئاب، سيكون عليها مواجهة وحوش تتربَّص بها، ومجابهة صعاب تعترض طريقها المليء بالحفر، سيكون عليها فعل ذلك دون مساعدة أمها ومؤازرتها التي لطالما كانت لها عونًا وضمادًا لجراحها يداوي آلامها، ويمحو آثارها، كان تربيت أمها على ظهرها يجلو ما علق بنفسها من حزن لا مجال لدحضه سوى بلمسات أمها الحانية.

جعلت تفكّر مَن سيقدم لها يد العون متى تمكَّن الحزن منها، مَن يعرف خباياها تمامًا كما تعرفها هي.. لم تهتدِ إلى جوابٍ قط، فاح عبير الذكريات، وبلغ منخريها ما نكأ جرح الفقد، وأيقظ آلامًا خلفها الرحيل، ودَّت لو تسد أنفها لتمنع الرائحة من الدخول وبلوغ وجدانها الذي مزَّقه الفراق، تطلَّعت إلى شاهد القبر بعدما تفرَّق الجمع، وجلست قرب اللحد تربِّت على التراب الذي احتضن جثة أمها للتو، وكأنما ترجوه ليحسن ضيافتها، التقطت حفنة من التراب، وأحكمت قبضتها عليها.. أدنتها من فمها وكأنما تحدِّثها، أسرت إليها بحديث لم يسمعه سواهما، كانت على يقين من أنَّ ذرات التراب ستغدو آخر ما يحمل رائحة والدتها، وهمست إليها بأنْ تكون على قدر التكليف، وألَّا تدع الرياح لتحمل الرائحة الطيبة بعيدًا، فتضل طريقها، وتتفرَّق ويصيبها الشتات، لم تشأ أنْ يبيت مصير أمها النسيان، لم تشأ أنْ يحمل ذكراها في غياهبه، وأنْ تضل السبيل بين تجاويف كهفه المعتم.

همست للتراب بألَّا يفرِّط بذكرى أمها المتبقية، وألَّا يحذو حذوَ الأيام في محو الذكريات وتدثيرها بغطاء النسيان، أيقنت أنَّ أمها لن تموتَ داخلها، وإنْ ودَّعتها للتو إلى مستقرها الأخير، شعرت بيدٍ تلامس كتفها، فالتفتت فإذا به والدها. قال:

"يكفي هذا القدر.. فلنعد إلى البيت يا سجى".

قالت باكية:

"ولكني لا أريد تركها".

قال الأب:

"سنعود لاحقًا، أعدك بذلك".

تردَّدت سجى، فقال الأب متفهِّمًا:

"أتفهَّم مشاعرك، ولكن لا يجدر بنا التعلَّق بما مضى بقدر ما يجدر بنا المضي قدمًا".

تنهَّدت سجى، وانهمرت دموعها لتسقي تراب القبر، ولتكون لأمها مؤنسًا، لن يروي ماؤها المالح النباتات، ولكنه سيبقى شاهدًا على مرورها الطيب، وسيمزج التراب ليغدو حانيًا ليِّنًا، بينما يضم جثة الأم المتفانية.

قال الأب:

"هيا يا سجى، لا يمكننا البقاء هنا طيلة الليلة، أخبرتك بأننا سنعود فيما بعد".

تطلَّعت إليه بعينين تملأهما الدموع.

قال الأب:

"دموعك غالية يا ابنتي، لا شك أنَّ بكاءك يحزنها إنْ كانت تتطلَّع إلينا من مكانٍ ما".

قالت سجى:

"ما بيدي حيلة يا أبي، لقد فقدتها ولم أدرِ إنْ كانت قد سامحتني على ما مضى من كلمات أطلقتها أثناء غضبي، وتصرفات لم ترُق لها كثيرًا، لطالما حاولت نصحي إلا أني لم أستجب قط؛ فكانت هي مَن ترتِّب أغراضي، وتلملم الفوضى التي أحدثها، وتتكفَّل بصنع الطعام بمفردها، ولا تبدي ضيقًا أو ضجرًا أبدًا مهما بلغ بها التعب، كيف عساي أعتذر وقد فات الأوان؟ رحلت أمي قبل أنْ يتسنى لي إبداء تقديري لتفانيها ولجهودها المخلصة، ماذا يمكنني أنْ أفعل سوى المكوث عند قبرها ومحادثتها؛ علها تغفر لي رعونتي وإهمالي؟ سيقتلني شعور الذنب يا أبي".

ضمَّها والدها إلى صدره، بينما غرقت في البكاء، وجرفت أمواج بحر الدموع سكينتها وثباتها الانفعالي إلى مكانٍ بعيد، فلم تستطع استعادتهما مهما فعلت ومهما بلغت من ذكاء. قال الأب:

"لا تحزني يا سجى، ولا ترديك الظنون، لا تتركي شعور الذنب ليعبث بعقلك ويعيث فيه فسادًا؛ أمك كانت تحبُّك، وأنا على يقينٍ من أنها ليست غاضبة منك؛ فلا تخدعك الأوهام وذريها جانبًا، لا تجادليها ولا تحاولي التجاوب معها، اتركيها تنبح ولا يشغلك نباحها المزعج عن متابعة الطريق، هل اتفقنا؟"

أومأت سجى في تأثُّرٍ، وقد لقي كلام والدها لديها استحسانًا إلا أنها خشيت ألَّا تستطيع تنفيذه.

قال الأب:

"فلنعد إلى البيت إذًا".

ثم أشار إلى قبضتها المحكمة، وتابع:

"واتركي حفنة التراب هذه حيث تنتمي، لا تحملي ما قد يثير لواعجك، واتركي الأيام تفعل فعلها لتضمِّد جرحك الغائر، سنعود إلى هنا على أية حال، فلا تخافي، ستبقى أمك بانتظارك لتؤنسي وحشتها، ولتنزعي عنها مشقة البقاء في لحدٍ ضيق، ستنير كلماتك ومحبتك ظلمتها كما ينير نبراس الطريق المعتمة".

أطلقت سجى سراح حفنة التراب لتعود إلى الأرض حيث تنتمي، وهي بذلك تكون قد أطلقت سراح حقيقة موجعة كانت ترفض تصديقها.

تركتها لتتسلَّل إلى إدراكها ببطء، وتركت الإنكار وأساليبه الملتوية التي لا تسفر سوى عن وجع أكبر وأكثر قسوةً، كان ما لحق بأمها حين زارها الردى حاملًا كفنًا أبيض مفجعًا إلى حدٍّ كبير، إلا أنها عدت نفسها محظوظة لوجود والدها إلى جوارها ليهوِّن من مصابها.

نهضت عن الأرض، وأمسكت يدَّ والدها، ثم ألقت نظرة مطولة على القبر قبل أنْ ترافقه إلى المنزل.

دلفت سجى إلى البيت لتجد ذكرى أمها عالقة في مختلف أرجائه، تخيَّلت طيفها في كلِّ مكان، تخيَّلته بينما يطهو الطعام، ويسقي نباتات الريحان، ويرتِّب الفوضى التي أحدثتها، ويجلي الصحون المتراكمة في حوض المطبخ، أثارت تلك الذكريات حزنًا مبكيًا، وألمًا مروعًا في نفسها التي فقدت أنيستها ومهجة فؤادها للتو، تقدَّمت

نحو أصيص الرياحين، وتذكَّرت وصية أمها لها بالاعتناء به، جلبت الإبريق الذي لطالما استخدمته أمها لري تلك النباتات، وشرعت تسقيها بالماء المتبقي داخله، بينما اغرورقت عيناها بالدموع الساخنة، تمخض ذهنها عن تفسير لوصية أمها: ستكون علاقاتها بخير ما دامت تلك النباتات بخير، سيفوح عبيرها خلابًا، ولن تذبل ما اعتنت بها.

عزمت على تولية تلك النباتات عنايةً خاصة وعلى ريها باستمرار؛ لتكون حصن علاقاتها وتحميها من الضمور.

تقدم والدها نحوها، ووضع يده على كتفها في حنانٍ، طالعته بعينين حمراوين من أثر البكاء وسألته:

"متى يعود كلُّ شيء كما كان؟"

قال يواسيها:

"قد لا تعود الأمور تمامًا كما كانت يا عزيزتي، لا بأس بالبكاء، ولكن لا تدعي أمد الحزن يمتد ويذيق قلبك ما لا يطيق".

لم تعرف كيف تصنع ذلك، وبدا لها الحزن وكأنما سيستمر إلى الأبد.

قال الأب:

"والآن اذهبي لترتاحي في غرفتك".

توجَّهت سجى إلى غرفتها بخطى متثاقلة إذ كانت على يقين من أنَّ الملابس المبعثرة على الفراش ستهيج لواعجها، وتسقيها كؤوس الشوق شديدة المرارة، فقدت عزيزتها ولم تعلم ما إنْ كان سيغدو بوسعها مواصلة حياتها رغم كل شيء، ولجت الغرفة لتجدها في حال مزرية، عنيت بترتيب الفوضى بينما تذرف العبرات، وحين

انتهت، انهارت إلى فراشها لتلوك أحزانها منفردة، علا نحيبها وشطر فؤادها المكلوم نصفين.. جهلت ما عليها صنعه بشأن أحزان اتخذت قلبها موطنًا، ولم يبد أنها ستبرحه أبدًا، ودت لو تطردها شر طردة إلا أنَّ ذلك بدا من ضروب المستحيل، خالج الأسى وجدانها وتجاهل توسلاتها له بأنْ يتركها وشأنها، فمزج مشاعرها، وطغى عليها، وشرع يدق نواقيس الخطر إذ لم يرق له ناموس الحياة المدعو بالموت وحسبه يعرضها لخطر محدق، ولحزنٍ عميق ذي وجه عابس مكفهر. سرق قرع النواقيس المستمر النوم من عينيَّ سجى التي جعلت تفكر فيما سيحل بها عقب وفاة أمها، شعرت بالخوف يغزو كيانها، ويبعث به رجفة نكراء تقوض شعورها بالأمان بين جدران منزلها التي وجدتها الآن غريبة كأن لم تسكنها آنفًا، حاولت الخلود للنوم إلا أنَّ طيف أمها كان يتراءى صوب ناظريها ويسلبها النوم، وجدتها باسمة منفرجة الأسارير، وتمنَّت لو تستطيع مخاطبتها واستجداء عفوها، لم يزُر النوم جفنيها تلك الليلة رغم محاولاتها المستمرة لاستعطافه، ليحل نزيلًا على عينيها المنهكتين وجسدها المتعب، تسلَّلت خيوط النور الأولى إلى غرفتها، وأدركت أنه سرعان ما سيتوجَّب عليها الذهاب للعمل؛ فالزمن لن يبطئ الخطى لموت أحدهم، بل ستمضي الساعات على الوتيرة نفسها، ولن تبالي بانكسارها وألمها الذي لا يطاق.

غادرت الفراش وخرجت إلى الردهة قاصدة أصيص الرياحين، أدنت وجهها من الأوراق الخضراء، وجعل أنفها ينهل من رائحتها العطرة، ذكَّرتها الرائحة بأمها وحملت لها شوقًا ومرارة خالجت نفسها، فلم تفتر عنها حتى أذاقتها من الألم ما لا تطيق، ابتعدت

هربًا من فوران الذكريات، وقصدت المطبخ لتعد الفطور الذي لطالما تكفَّلت أمها بإعداده. كانت على يقين من أنها لن تحسن إعداده مثلما كانت تفعل أمها، تأجَّجت مشاعرها واختلطت إذ تذكَّرت وقوف أمها أمام الموقد، وانهمار قطرات العرق على جبينها بينما تصنع الطعام الشهي، وطلبها إليها المساعدة وكيف كانت تتمنع وتتجاهل نداءها، ودَّت لو يعود بها الزمان فتساعدها ولو لمرةٍ واحدة بعد، ودَّت لو يؤنسها وجودها إلى جوارها إلا أنَّ ذلك غداً من ضروب المستحيل، لم تعد أمها سوى طيف يزور مخيلتها من آنٍ لآخرَ، ثم سرعان ما يرحل مخلفًا لوعة وشعورًا مقيتًا بالفقد، لطالما كرهت الحديث عن الموت، إلا أنه اليوم بات شقًا لا يتجزأ من حياتها مهما مقتت سيرته.

"صباح الخير".

استيقظ والدها، وألقى عليها تحية الصباح بينما لا يزال النعاس يداعب عينيه، ردَّت التحية بنبرة شابها الأسى:

"صباح الخير يا أبي".

لم تجف دموعها بعد، وتحاشت النظر إلى عينيه؛ كي لا يبصر عبراتها، بينما تتلألأ في مقلتيها، تقدَّم نحوها وطبع قبلة على جبينها، ثم مسح ما طال وجنتيها من دموع، فأبكاها حنانه تأثرًا، وذرفت المزيد منها، ضمها إلى صدره قائلًا:

"لا بأس يا عزيزتي، أعلم أنَّ جرحك شديد الإيلام، ولكنه سرعان ما سيطيب حين يرعاه الزمان برعايته، فاصبري ولا تتعجلي برء الجرح، سيبرأ حتمًا، وستكف الذكريات عن إضرام النيران بقلبك السقيم".

قالت سجى بين دموعها:
"أخشى ألَّا تبرأ جراحي أبدًا يا أبي".

قال الأب:
"ستفعل يا ابنتي، ولكن لا تجتري ما يزيد ذكرياتك المتقدة سعيرًا، دعي مرور الأيام يربِّت على فؤادك، فلا تقاومي إحسانه خشية النسيان، ستبقى ذكرى أمك عالقة بوجدانك ولن تبرح مكانها في قلبك مهما حدث".
أومأت سجى برأسها، وقد هدهدت كلمات والدها اضطراب قلبها المفطور، تهيأت سجى للذهاب لعملها، وجعلت تزدرد مرارة الأحزان في محاولة لإخفائها، وحاولت متابعة يومها كما اعتادت أنْ تفعل، طبعت قبلة على جبين والدها الذي رجا لها التوفيق، وغادرت المنزل قاصدة الشركة، وحين بلغتها، قصدت مكتبها دون إلقاء التحية على زملائها، جلست إلى الحاسوب، وفتحت الملف الذي كانت بصدد العمل عليه، حاولت متابعة ما بدأت إلا أنها شعرت بالوهن يغمرها، وبالحزن يجعل دماغها ضبابيًا مشوشًا، وبالألم يعتصر فؤادها، ويجعلها تذرف الدموع إلى أنْ أضحت عيناها غائمتين، جعلت تمسح دموعها بين الفنية والأخرى؛ حتى لا ينتبه إلى بكائها أحد، لم تستطع رغم محاولاتها الدؤوبة استدعاء تركيزها، بل بقي غائبًا مختبئًا خلف طوفان من الأحزان، حاولت من جديد إلا أنَّ عقلها خذلها، وقتلت أحزانها مهاراتها شر قتلة، أخذت تحاول بقوى خائرة وعقل شارد إلى أنْ تمكَّن منها

الانهيار؛ انهار كل شيء دفعة واحدة، واستسلمت لبكاء مرير ونحيب مطول.

طرقت وئام الباب، فحاولت سجى كظم زفراتها ومسح عبراتها إلا أنَّ زميلتها انتبهت لبكائها، ولم تفلح سجى في إخفاء انهيارها الذي شابه انهيارًا ثلجيًا يجرف كلَّ ما يعترض طريقه، جرف انهيارها كل شعور بالاطمئنان وترك وجهها مربدًا، وترك نفسها لتكابد خوفًا ملتهبًا أضرم النيران في أزقة وجدانها. هرعت وئام إليها، وقالت بنبرةٍ شابها القلق:

"ما بكِ يا سجى؟"

لم يسع الأخيرة سوى الانفجار من البكاء، فضمتها زميلتها وقالت:

"ماذا حدث؟"

حاولت سجى لملمة شتاتها، وطرقت باب الطمأنينة مرارًا، فلم يفتح لها أحد، ولم يسمح لها بالدخول.

قالت بين دموعها المنهمرة:

"لقد ماتت أمي يا وئام.. ماتت ولم أعتذر منها عن إهمالي ورعونتي، ماتت دون أنْ أشبع من فيض حنانها، لم أنهل منه ما يكفيني لأتابع الطريق، واليوم وقد وارى التراب جسدها، لم أعد قادرة على الاستمرار، سيرديني الحزن فأخرُّ صريعةَ أفكاري المظلمة، سيقتلني شعور الذنب، استعرت نيرانه ولا يسعني سوى أنْ أنفث فيها محاولة إطفاءها، إلا أنها تزداد سعيرًا رغم كل شيء، وتحرق دواخلي وتذهب آثار السكينة، فيغدو قلبي واجفًا مضطربًا".

قالت وئام، وقد أثار كلام سجى في نفسها شفقة وألمًا:

"لا عليك يا سجى، سيضمر الألم بمضي الوقت، أنا على يقين من أنها قد سامحتك وأنها لا تحمل لك أية ضغينة، وأنَّ ما تسمينه إهمالًا لم يترك في وجدانها أدنى أثر؛ فهي أمك في نهاية المطاف".

تنهَّدت سجى، وقد نال منها التيه وجرفها بعيدًا لتغدو غريبة عن محيطها، وتضل طريقها في دروب الحياة، امتطت أرجوحة الأوهام التي لا تفتأ تعبث بدماغها، وانطلقت تتأرجح بين حقيقة عالمها المحيط وسراب أفكارها المظلمة، أصابها دوار إلا أنها لم تكف عن التأرجح، وخالت الأفكار تقوض أسس العالم الحقيقي، فينهار مخلفًا ركامًا وغبار، ويكون عليها البحث عن أشلاء الحقيقة بين الركام فلا تهتدي إليها وإنما يقودها البحث المضنى إلى مزيد من الضلال.

قالت وئام:

"تحليِّ بالأمل يا سجى؛ فهو ملاذك الأوحد ووسيلتك لمغادرة جحيم أحزانك الذي ألقت بك فيه أفكارك المزعجة، أعلم أنَّ ذلك قد يبدو صعبًا الآن إلا أنَّ الأيام ستتكفَّل بمداواة جرحك الغائر".

أومأت سجى برأسها، وأعادت بصرها إلى شاشة الحاسوب بغية متابعة عملها.

قالت وئام:

"لا بأس إنْ لم تستطيعي العمل اليوم، عودي إلى منزلك، ويمكنك إتمام ما بدأت في الغد".

واصلت سجى المحاولة، ولم تلتفت لحديث زميلتها، واصلت دفع نفسها إلى الحافة غير مبالية بأنها قد تهوي لتتحطم عظامها إثر سقوط مروع، غامت عيناها، وامتلأتا بدموع ساخنة، وشعرت

بأنها تحفر في جلمود صخر شديد القسوة بفأس باردة تحتاج إلى شحذ، نهضت من مكانها أخيرًا لتغادر العمل، وتركت خلفها مهامًا كان يجدر بها إتمامها إذ لم يكن العناد ليجلب لها سوى مزيد من التعاسة.

خرجت إلى الشارع واخترقت أبواق السيارات وأصوات المارة صرحًا شيدته من لبنات قاسية تختبئ خلفه روحها الواجفة، أصابتها الأصوات بذعرٍ وهلع، وانطلقت تحث الخطى إلى منزلها سالكة أقصر الدروب، كاد الصرح يتداعى إذ سددت إليه الأصوات طعنات نافذة، وصنعت ثقوبًا متعددة لتمر خلالها مثيرات العالم المزعج، استحال سيرها الحثيث ركضًا إذ أرادت الفرار من أصوات محيطها وأفكارها القاتمة، ظنت أنها بركضها هذا ستسبقهم ولن يكون عليها مكابدة ويلاتهم المتعاقبة، بلغت سجى منزلها لاهثة، دلفت إلى الردهة، وانهارت إلى إحدى الأرائك بالكاد تلتقط أنفاسها الضحلة، تمكَّن منها الإنهاك، ودفنت وجهها بين كفيها؛ كي لا تبصر مزيدًا من المثيرات التي تستدعي الذكريات من مظانها، وتضاعف ذعرها، وتؤجج نيرانه التي ما إنْ تشتعل حتى تلتهم ما تبقى من ثباتها الانفعالي، ترك والدها طهي الطعام ما إنْ رآها قد وصلت، وجلس إلى جوارها قائلًا:

"ما الأمر؟ لماذا عُدتِ باكرًا؟"

أجابت دموعها عوضًا عنها، وجعل والدها يمسح عبراتها بأنامله. قال محاولا طمأنتها:

"ستكونين بخيرٍ؛ فلا تجزعي".

لم تصدق كلماته، ولم تلق صدى لدى عقلها الغارق في المعاناة، كان ألمها أكبر من أنْ تحتويه الكلمات، علقت في شباكه فلم تعد تستطيع التملص. قال الأب محاولًا تغيير دفة الحوار:

"خمِّني ماذا طهوت لكِ اليوم! صنعت لكِ وجبتك المفضَّلة.. المعكرونة بكرات اللحم!"

تكلَّفت سجى ابتسامة خافتة مجاملة لوالدها وتقديرًا لجهده، لزمت صمتًا مطبقًا فسألها:

"ماذا؟ أليست تلك وجبتك المفضلة؟ ربما لم أصنعها بالجودة ذاتها التي كانت تصنعها بها أمك إلا أنني حاولت تقمص أدائها في نهاية المطاف، وبذلت في ذلك جهدًا كبيرًا".

انتشلها حديثه من شرودها، فقالت:

"أقدِّر جهدك يا أبي.. شكرًا جزيلًا لك".

ابتسم وقال مشجعًا:

"ما رأيك بأنْ نتناول الطعام سويًّا؟ لقد شارفت على الانتهاء من إعداده".

كانت الأحزان تجرُّها جرًّا إلى العزلة، لم ترغب صدقًا بتناول الطعام بل رغبت بالانزواء، وإطالة البكاء، والاستسلام لألم بعث من رقاده حين وارى أمها التراب، ولكنها قالت رغم كلِّ شيء:

"سيكون ذلك رائعًا".

ربَّت والدها على كتفها وقال:

"سأتابع الطهو ريثما تبدِّلين ثيابك".

ولجت غرفتها لتبدل ثيابها، وهناك تجمهرت الأحزان، وعلا صوت هتافها ليغمر عقلها ويجتاح خلاياه، حاولت إخراسه إلا أنه كان يزداد قوة وبأسًا حتى كاد يصيبها بالجنون حتمًا، تسارع إيقاع نغمات رتيبة تقرع أذنيها منذرة بخطر محدق يتجهمها ما أصابها بهلع لا يضاهيه شعور زارها سابقًا، جعلت تنتحب وكادت تلفظ أنفاسها المتضاحلة بين زفراتها المريرة، بدَّلت ثيابها، وحاولت لملمة شتاتها وجمع ما تفرَّق من شظايا روحها التي فتتها الأسى، مسحت دموعها وخرجت إلى الردهة لتجد والدها بانتظارها، وقد قام برص الصحون على منضدة الطعام، جلست إلى الطاولة تطالع الطعام بشهيةٍ غائبة، لاحظ والدها أنها لا تأكل، فقال:

"ألم يعجبك الطعام؟ لقد صنعته خصيصًا لكِ، يمكنني صنع سواه إنْ أردتِ ذلك".

قالت سجى:

"بلى يا أبي، إنه رائع".

حاولت تناول بعض منه خشية أنْ تجرح شعور والدها إلا أنها لم تستطع الاستمرار بالادعاء، سرعان ما زهدته جملة وتفصيلًا، وشعرت بتجمع الدموع في مقلتيها، فغادرت المنضدة قاصدة غرفتها إذ دقت نواقيس الخطر منذرة بانهيار وشيك، دفنت وجهها في وسادتها، وأطلقت صراخًا حبسته طويلًا، جعلت تصرخ إلى أنْ بح صوتها، تلاحقت نوبات البكاء على نفسها المضطربة حتى شعرت بأنها تنازع، وأنَّ روحها ستفارق جسدها الواهن في إحدى تلك النوبات، خلدت إلى النوم أخيرًا بعدما أنهكها النحيب، ونزع وشاح الاطمئنان عن قلبها المتألِّم، فبات يرفرف بين جنبيها خائفًا

ملتاعًا، نكلت بها أحزانها وأذاقها شعور الفقد سكرات مرة تشابه سكرات الموت، جرَّعها كأسًا من الآلام فلم يرحم ضعفها، بل جرَّعها الكؤوس تباعًا، وازدردت المسكينة شرابًا مرًّا يفوق كلّ مرارة كالتها لها الحياة سابقًا.

جلس الأب إلى الطاولة منتظرًا عودة ابنته وقد بلغه ألمها المُتقِّد، ولامس حزنها ضخم الجثة، أحزنه عدم تناولها لما بذل مجهودًا في إعداده إلا أنه التمس لها عذرًا؛ فالمسكينة تكابد ألم فقد لم تعهده أبدًا، وحين طال انتظاره ويأس من عودتها للمنضدة، جمع الأطباق التي ظلت على حالها ليودع الطعام البراد كي لا يَفسَد، تمنَّى لو منحته فرصة ليعوضها عن غياب أمها إلا أنَّ حزنها بدا مستفحلًا، وآلت جهوده إلى فشل مُحقَّق، لم يستطع أنْ يواجه وحشًا كاسرًا سجنها في سراديبه المظلمة، إذ لم يملك لذلك أسلحة كافية.

استيقظت قبل شروق الشمس بساعتين لتجد نفسها وحيدة الظلمة، عاجزة عن متابعة النوم، بدا لها أنَّ هذا القدر هو كل ما ستحصل عليه، واستلقت على فراشها تحدق بالفراغ، تمنَّت لو تستعيد أمها واللحظات التي أمضتها معها كما تمنَّت لو تتذوق طعامها اللذيذ لمرة واحدة بعد، تمنَّت لو تضمها إلى صدرها فتهدأ ويسكن اضطرابها، ويصيبه الفتور، طفت أمنياتها في فضاء الغرفة ترجو أنْ تتبناها الأقدار، حلَّقت تثابر على ثغر الأمل بأنْ يعود كلُّ شيء كما كان، لطالما كرهت التعلُّق بالماضي، فعودته من ضروب المستحيل، إلا أنها اليوم لا تكف عن معانقة الذكريات، لعلَّها تستحيل واقعًا متجسدًا.

لاحقا، أضاء والدها مصباح الغرفة فوجدها ممددة على الفراش تحدِّق بالسقف في هيام بذكريات أخذت تتمثل نصب عينيها.

سألها قلقًا:

"ألم تتمكني من الخلود للنوم؟"

قالت:

"بلى، نمت ما فيه الكفاية".

لم يلق كلامها قبولًا لديه إذ بدت على ابنته آثار السهاد؛ كانت أجفانها متهدلة، وعيناها الحمراوان متورمتين لدرجة أنها بالكاد استطاعت إبقاءهما مفتوحتين.

قال الأب:

"إذا، تعالي؛ فقد أعددت طعام الفطور".

قالت سجى:

"حسنًا، أنا قادمة".

همست الذكريات بأذنيها من جديد، أنصتت سجى إلى خيالات الماضي التي مرت بوجدانها، وأسرت إليها بحديث أثار لواعجها، تذكَّرت تناولها الفطور مع أمها، وأدركت أنَّ كلَّ هذا قد مضى في غفلةٍ منها، وانقضى في غمضة عين، نهضت من مكانها وقد أثقلتها الهموم، وربضت على صدرها متجاهلة أنَّاتها المكتومة وداخلها الذي يصدح بالصراخ، خرجت إلى الردهة، وجلست إلى الطاولة لتتناول ما تكفَّل والدها بإعداده من الطعام، أسفرت جهوده عن فطور بسيط بعيد كلَّ البعد عما اعتادت أمها إعداده، إلا أنها شعرت بالامتنان لجهوده؛ فلولاها لما وجدت ما تقتات عليه إذ استنزف الحزن طاقتها، وباتت تواجه الحياة بقوى خائرة، كانت

تحدِّق بالطبق بذهنٍ شارد، فلم تنتبه لحديث أبيها سوى حين رفع صوته مناديًا إيَّاها:

"سجى! ألا تسمعين؟"

ارتبكت ورمقته بنظرةٍ واهنة قائلة:

"بلى، بلى يا أبي أسمعك".

سألها:

"ما بكِ يا سجى؟"

أجابت:

"لا شيء، أنا متعبة فحسب"

تنهَّد وقال:

"اسمعيني، أعلم أنَّ رحيل أمك قد أورثك من الحزن ما لا تطيقين، ولكن يجدر بك نزع الرداء الذي أسبله عليكِ ذاك الشعور التعس.. لن يجلب لكِ سوى مزيد من المعاناة".

قاطعته قائلة:

"أحتاج.. أحتاج بعض الوقت فحسب، آسفة فلست أستطيع خلعه الآن".

"خذي وقتك، ولكن إيَّاكِ والركون إلى ظلال تعسة تمتص طاقتك ما اتخذتها مظلة تقيك رمضاء شمس الفاجعة.. لا تركني إليها خشيةً أنْ يحرقك لهيب الذكريات المتتالية".

أطرقت برهة ولم تفهم كلام أبيها تمام الفهم، ثم غادرت مكانها متحدية وهنًا غزا أوصالها وقالت:

"سأذهب الآن، آسفة لتخييب رجائك، وأعدك بأنْ أبذل ما بوسعي".

ذهبت لتضع ثيابها، وحاول والدها أنْ يستوقفها فلم يفلح في ذلك، أدرك أنه ربما استعجل برء جرحها ودفعها للتعافي دفعًا، أنهت ارتداء ملابسها، وتقدَّمت نحو الباب صائحة:

"إلى اللقاء يا أبي".

صاح الأب:

"انتظري يا سجى".

إلا أنَّ نداءه لم يبلغ سوى آذان قررت التغافل عما يضرم نيران الألم في جسد يؤويها.

مضت سجى، وقد طال أذنيها الصمم إذ ولجتها كلمات كانت بمثابة حمض سكبه أحدهم على جرحها غير الملتئم، قررت المضي إلى عملها دونما التفات للخلف،

وحين بلغت الشركة، عبرت المكاتب غير عابئة بإلقاء التحية، تجاوزت جميعها، ولم تتوقَّف لوهلة إلى أنْ وصلت إلى مكتبها.

جلست إلى شاشة الحاسوب وقد غمرها إصرار على إتمام العمل الذي بدأته بالأمس، ولم تفلح في إنهائه، بقيت تفاصيل التقرير وجمله مبتورة تنتظر مَن يكملها، ودَّت لو تكون بمثابة مغيث لها، فتصدُّ عنها خطر الفناء محوًا، أو البقاء عالقة في مستودع الكلمات في انتظار أنْ يستعملها أحدهم، ويميط عنها الغبار، باشرت العمل والذكرى لا تزال تلوح في عقلها من آنٍ لآخرَ، ركنت إلى اطمئنان زائف شيدت بنيانه للتو، وأفلحت في إقناع نفسها بأنَّ الأيام ستبتسم لها مجددًا إنَّ هي تجاوزت صدمتها وكربها العظيم،

حاولت تنحية حزنها جانبًا، والاتكاء إلى قناعتها الجديدة التي أجلت الإحباط عن كيانها المرتاع، وبينما تصارع مصابها وتجتهد لإتمام عملها، شعرت بالإنهاك يغمرها إذ تجاهلت مشاعرها تمامًا.. لم تعره اهتمامًا، وصبت تركيزها على شاشة الحاسوب، لم يكن الإنهاك ليذرها وشأنها، ولم يكن حزنها ليرفع راية الاستسلام البيضاء؛ جعل كلاهما يزحفان إلى روحها ليقوضا حالة التحسن الزائفة التي ادعتها، قاومت طويلًا، وأبت أنْ تخضع مجددًا لسيطرتهما إلا أنهما تمكنا منها في النهاية، وأجهزا على عنقها ليفنى أملها بمتابعة العمل الذي كادت تنهيه، ولتغرق في بحر من الدموع الساخنة.

تأمَّلها زميلها "شاهر" بينما تذرف الدموع مثلما عكف على تأمل تصرفاتها وجمالها الذي وجده أخاذًا، كان مولعًا بشخصيتها القوية والعفوية في الآن نفسه، وآسفه أنْ تسيطر عليها أحزان لا طاقة لها بمقاومتها، لطالما وجد في هيئتها ما يدعو للانبهار؛ فجمالها الطبيعي الذي لم تخفه مساحيق التجميل أسره وكاد يسلبه لبه، سحره شعرها شديد السواد المسدل على كتفيها، وأذناها اللتان حملتا أقراطا ذهبية صغيرة، وكأنما رصعت بنجوم لامعة، أما ابتسامتها فوجدها فاتنة حملت إليه أملًا لا يخبو نوره ولا يخفت.. خالجت عقله ومزجت أفكاره كلها، فباتت مبهمة غير مفهومة، كان يرتبك كلما حاول الاقتراب منها؛ أحيانًا يدنو ليلقي عليها تحية الصباح ثم سرعان ما يفر إلى مكتبه حين يفتنه جمالها، ويقوض قدرته على الكلام، يخرسه بهاء طلتها فيطلق لساقيه الريح.. ولهذا لم يبُح لها بمشاعره قط مهما كثرت، وتكالبت على قلبه مرهف

الحس، استجمع قواه هذه المرة وطرق باب المكتب المفتوح أصلًا ليستأذن للدخول عازمًا على تعزيتها والتهوين من مصابها.

مسحت سجى دموعها حين انتبهت إلى قدوم أحدهم، ولم تنزع بصرها عن شاشة الحاسوب، تقدَّم شاهر نحوها بخطى مترددة وقال:

"سجى؟"

قالت في غلظةٍ:

"ماذا تريد يا شاهر؟"

وحين التفتت نحوه، أبصر دموعًا تملأ مقلتيها وهالات داكنة أحاطت عينيها المرهقتين، فاجأه جفاؤها إلا أنه رجح أنَّ ربما لا تريد أنْ يبصر دموعها أحد.

قال:

"أتيت لمواساتك يا سجى".

قالت سجى منزعجةً:

"أثمن لكَ ذلك كثيرًا.. الآن وقد فعلت، أيمكنك المغادرة؟ فشفقتك تزعجني!"

قال شاهر مصدومًا:

"لستُ أكن لكِ شفقة يا سجى، وإنما أحمل لكِ اهتمامًا يجعل من واجبي أنْ أعزيك في مصيبتك".

تنهَّدت سجى، وجعلت تهز رجليها، وتطقطق أصابعها توترًا.

قال شاهر حين فطن إلى ارتباكها:
"سأخرج الآن، آمل أنْ تقبلي عزائي".
أومأت سجى برأسها بينما تحبس دموعها لكي لا تنهمر في وجوده.. وحين خرج، سمحت لعبراتها بالانهمار، وأدركها الندم إذ عاملته بقسوةٍ.
تساءلت ما بال كل خطب يصب في وعاء الندم لديها؟ متى ستنام مرتاحة الضمير؟ متى تتوقَّف نفسها عن لومها واجترار أخطائها؟ لم تجد جوابًا لأسئلتها المُحيِّرة، شرعت تطرق لوحة المفاتيح مجددًا، قاومت أشباح الحزن في بسالةٍ نادرة، ولم تترك سلاحها قط، تسلَّحت بعزيمةٍ لا تفتر إلى أنْ أنهت العمل المُسنَد إليها.
أتت وئام، وولجت غرفة المكتب لتتأفف سجى من حضورها.
قالت وئام:
"ماذا دهاك يا سجى؟"

قالت سجى متهكمة:
"لا شيء! كل ما في الأمر هو أنَّ أمي فارقت الحياة! ألا يجدر بي إبداء الحزن والحداد إذ رحلت؟! أتظنونني جمادًا لا يشعر ولا يتألم؟!"
غلبها البكاء، بينما قالت:
"أحاول ادِّعاء أني طبيعية إلا أنَّ شتى محاولاتي تبوء بالفشل الذريع.. ليتني أستطيع تجاوز أمر وفاتها سريعًا! ليتني أستعيد بشاشتي وروحي الطلقة عوضًا عن الانغماس في الأسى والبكاء! لا تُكرِهوني لأنهض سريعًا؛ فقد كُسِرت ساقي، وتحتاج وقتًا لتتعافى".

قالت وئام:
"ما هذا الذي تقولينه؟ لم يُكرِهك أحد على شيءٍ، لم نفعل سوى محاولة تحفيزك؛ كي لا تسحبك دوامة الكآبة إلى مجاهل مروعة".
صرخت سجى:
"بل فعلتم، لا تكفون عن مطالبتي بتجاوز الأمر، وتظنون أنَّ تجاوزه هين.. دعيني أعلمك بأنَّ تجاوزه ليس سهلًا بل هو أشبه بتسلق قمم شاهقة دونما معدات وبرئة تعمل بنصف كفاءتها، أقدِّر أنكم تحاولون مساعدتي إلا أنَّ حديثكم لا يساعدني قط، بل يزيدني شعورًا بالذنب، ويغمسني في وحل الاكتئاب ليلطِّخ ثيابي، ويدلف إلى فمي، ويصيبني باختناق".
تنهَّدت وئام، وقالت:
"كيف تريدينا أنْ نساعدك إذا؟"
قالت سجى في امتعاضٍ وضجر:
"لا أريد مساعدة أحدكم.. سأتدبَّر أمري بمفردي".
أومأت وئام برأسها في إذعان خالطه الأسف:
"كما تشائين".
غادرت مقعدها عائدة إلى مكتبها، وفي طريقها إليه التقت شاهر الذي سألها:
"كيف هي سجى؟"
قالت وئام:
"لم لا تسألها بنفسك؟"

قال شاهر خجلًا:

"حاولت ذلك إلا أنها لم تعطني فرصةً".

أومأت وئام برأسها، وأطلقت تنهيدة حارة ثم قالت:

"ذرها وشأنها؛ فهي لا تريد محادثة أيٍّ منا ويزعجها حديثنا على أية حال، يكفيها ما تعاني؛ فلا تزِد معاناتها أضعافًا.. ستجتاز ما أصابها بمفردها، أعلم أنها ستفلح في ذلك؛ فأنا أعرفها جيدًا".

قال شاهر متفاجئًا:

"سنتركها إذا؟! سنتركها بين رحى المعاناة؟!"

قالت وئام ضجرة:

"أجل سنتركها يا شاهر، لن يمرضك سوى هيامك بها الذي جاوز الحدود، دعها وشأنها حتى تستعيد قبضتها على مشاعرها التي أفلتت من سرجها كما خيل جامحة، والآن ابتعد عن طريقي؛ فلدي عمل أقوم به".

تجاوزته وئام إلى مكتبها بينما غرق في قلقه بشأن سجى التي لزمت التأرجح بين التغافل التام والاهتمام المبالغ به بكل ما يدور حولها، وطئت قدماها أرضًا مقفرة ذات رمال متحركة تبتلعها إلى الداخل ببطء شديد، فتقتحم الرمال الناعمة أنفها وفمها لتبلغ رئتيها في نهاية المطاف، ولا يمكنها السعال إذ لا مجال لذلك بالأساس، ستقضي نحبها غرقًا في رمال البؤس، ولن يبلغ صراخها مسامع أي كان، ينطلق صراخها مكتومًا تحجبه رمال كثيفة، ولا تكاد تفتح فمها حتى تبتلع مزيدًا من الرمال فتعرض عن الصراخ أخيرًا، قررت خوض الحرب بمفردها؛ كي لا تؤذيها محاولاتها للاستغاثة.

شارف يوم العمل على الانتهاء، ولم تتحرَّك سجى من مكانها قيد أنملة، جابهت الآلام وحدها، وتخطت صعابًا اعترضت طريقها بشجاعة نادرة واستبسال مذهل، فأرغمت نفسها على إتمام العمل وأولته جل اهتمامها، لم يكف عقلها عن استحضار الذكريات بين الفنية والأخرى إلا أنها كانت تعيده إلى العمل جلدًا بالسياط، لم ترفق بنفسها المتألمة، ولم يشفع لها فقدان أمها، ودَّت لو يلهيها العمل عن ألمها المبرح؛ لذا فلم تدخر جهدًا في الانكفاء عليه وإنهائه.

غادرت مكتبها عقب انتهاء الدوام، ولم تلتفت لشاهر الذي جعل يناديها ويرجوها أنْ تنتظر، تركت خطوب عملها خلفها وقصدت منزلها، وما إنْ بلغته حتى دنت من نباتات الريحان تنهل من رائحة أوراقها العطرة في نهم، غمرت الرائحة كيانها وذكرتها بفقيدتها، جلبت الإبريق نفسه الذي اعتادت أمها استخدامه، وشرعت تسقي الرياحين بينما تنهمر دموعها لتمتزج بمياه الري فتسر إلى رياحين أمها بألم يجتاحها وشوق يعصر فؤادها، تمنَّت لو تحمل رائحة الرياحين حديث قلبها ولوعتها إلى حيث تمكث أمها الآن، ودَّت لو يبلغها افتقادها لها والألم الذي خلفه رحيلها، ودَّت لو تخبرها كم خنجر دسه ألم الفقد بفؤادها كما ودَّت لو تستجدي عفوها.. تمنَّت لو تشفع لها الرائحة العطرة عند أمها فتغفر لها إساءاتها وإهمالها، أوصت الرياحين بحمل الرسالة، وأيقنت أنها تسمع إسرارها، لن تخلف الرياحين وعدها بالوفاء بالأمانة على ثقلها.. حدثتها سجى:

"يمكنني الاعتماد عليك يا وصية أمي".

لامست أناملها الأوراق في تأثُّر ثم أدبرت مبتعدة إذ هاجت مشاعرها وماجت.

انقضى شهر لزمت فيه سجى الذهاب إلى عملها كل صباح وإرغام نفسها على العمل حد الإجهاد، تحسَّن مزاجها بعض الشيء، وتكفلَّت الأيام بتضميد جراحها وتسكين آلامها المروعة.

لم تندمل الجراح تمامًا، ولكن ألمها بات أخف وطأة من ذي قبل، لم تعد الذكريات تطفو إلى سطح مخيلتها بالوتيرة نفسها، بل لزمت مكامنها لوقت لا بأس به ما أمكنها من متابعة حياتها على نحو شابه الطبيعي، أما شاهر فلم يثنه صدودها عن عزمه على التقرب منها.. لم يكف عن محاولة الحديث إليها حتى لان جانبها وبادلته اهتمامًا مماثلًا.

دلف إلى مكتبها قائلًا:

"جلبت لكِ القهوة".

تطلَّعت إلى وجهه الصبوح المستبشر، ووجدته حاملًا كوبين من القهوة، كانت ابتسامته تصيبها بعدوى التفاؤل، فلا تجد بُدًّا من الابتسام بدورها.

عشقت ابتسامته؛ فهي نضرة حية لا يشوبها كدر إلا أنها اليوم لم تصبها عدوى التفاؤل بداية، وإنما قالت بينما تطرق سطح مكتبها بكفها:

"ضعها هنا واذهب؛ فلستُ في مزاجٍ جيد يسمح لي بتبادل الحوار".

ولته ظهرها، وأعادت انتباهها لشاشة الحاسوب، لم يردعه رفضها وتجاهلها، وقال رافضًا الاستسلام:

"ستصلح القهوة مزاجك.. ثقي بي، كوب منها كفيل بإصلاح كل شيء".

تأفَّفت ثم قالت متهكمة:

"لست سوى برميل قهوة متحرك".

أجاب باعتداد:

"أعلم ذلك وأعتد به، أي طعم سيكون للحياة ما لم نحتسِ رشفات من القهوة لتمكننا من تجرع آلامها؟ أتعلمين؟ تضيف مرارة القهوة نكهة خاصة تجعل من طعم الآلام سائغًا، ثقي بي، لن يسفر ابتلاعك للآلام منفردة سوى عن مرارة بشعة بالحلق.. امزجيها برشفات القهوة، وحدثيني عن طعمها حينئذ".

ازدرد لعابه ورشف بعضًا من كوبه، ثم لعق شفتيه بلسانه هيامًا بطعم القهوة الذي تربطه به علاقة وثيقة، أغمض عينيه وأصدر صوتًا يفشي استمتاعه وتلذُّذه بمشروبه المُفضَّل، أطلقت سجى ضحكات متقطعة عجزت عن كتمانها، وقالت:

"يا لكَ من مُهرِّج!"

تحمَّس شاهر إذ أدرك أنه أصاب الهدف الذي ثابر لأجله، قال ممازحًا إياها:

"اشربي قهوتك قبل أنْ تبرد، وغدًا آتيك بثياب مزركشة وأنف أحمر".

راق لسجى كونه خفيف الظل، ولم تتوقف عن الضحك حتى آلمتها بطنها ودمعت عيناها إذ جعل شاهر يقلد حركات المهرج بغية إضحاكها.

غادر شاهر الغرفة أخيرًا، وجعلت ترشف من كوب القهوة، وتذكرت حديث شاهر أنَّ مرارتها تهوِّن مرارة الآلام، شعرت بطعم القهوة المر في حلقها ما طغى على كل مرارة سواه، ابتسمت إذ راق لها اهتمام شاهر بها، وتوسَّمت أنْ يفلح اهتمامه واهتمام زميلاتها في طرد ما يعتريها من وحشة وما يسكن خواء نفسها من شبح الألم المقيت، أثنت زميلتها رنيم على التغيير الذي طرأ على سلوكها وقالت:

"تسرني استعادتك لإشراقتك وابتسامتك الخلابة، ووجهك المستبشر الضحوك".

قالت سجى:

"وأنا كذلك سرَّني الأمر، شكرًا لمكوثكم إلى جواري في مصابي، وتحمَّلكم لاكفهراري ومزاجي العسر.. كم أثقلت عليكم فاعذروني".

قالت رنيم:

"لا عليك يا سجى.. المهم أنك بخير الآن".

ابتسمت سجى، وأخفت خلف ابتسامتها بقايا الحزن الذي أثار إعصارًا عصف بمشاعرها ذات يوم، وجرفها بعيدًا؛ ليكون له السؤدد وليحتل وجدانها بأسره، عرفت السعادة سبيلًا لوجدانها المتخم بالمشاعر السلبية، وجاهدت لتجد مكانًا بين الزحام، توارت الدموع خلف ضحكاتها الخجلة والمتحفِّظة.. شعرت بالامتنان إذ زارت البهجة كيانها أخيرا وأضاءت ظلمته الدامسة

ولحقها اطمئنان؛ فزملاؤها لن يتركوها وحدها لتصارع الكيان الضخم العابس المدعو بالاكتئاب، عادت عاصفة الأسى أدراجها، وابتعدت تاركة المجال للاخضرار يكسو روحها التي استحالت صحراء مقفرة بفعل الحزن والسقم، نبتت أشجار الأمل وأزهار تبعث رائحتها على السعادة والحبور.

وبينما تحدِّق بشاشة الحاسوب، ولج زملاؤها مكتبها حاملين كعكة يوم ميلاد، أنشدوا أغنية ورجوا لها يوم ميلاد سعيد، فوجئت سجى إذ لم تنتبه إلى أنه يوم ميلادها بالأساس، تاهت تلك التفاصيل بين كثبان البؤس، فلم يعد لها أثر، جعل كل منهم يرجو لها السعادة وطول العمر.. أثمنت جهودهم، وتجمعت دموع السعادة في مقلتيها، وفر بعضها فسارعت بمسحه لكي لا تفسد اللحظة المبهجة، وضعوا الكعكة التي بدت لذيذة المذاق على سطح المكتب، وعانق بعضهم سجى التي شكرتهم شكرًا جزيلًا، وأمطرتهم بكلمات العرفان. قالت في تأثُّر:

"حقيقة أفتقر إلى الكلمات التي توفيكم حقكم، ولكني أقدِّر جهدكم الاستثنائي لرسم البسمة على وجهي، أبشِّركم بأنكم أفلحتم في إدخال السعادة إلى قلبي ومحو بعض ما ترسَّب به من ألم، شكرًا لكم جميعًا".

قاموا بتقطيع الكعكة وحصل كل على نصيبه وباشروا الاستمتاع بمذاقها الرائع، أيقنت سجى أنَّ مذاق الكعكة الطيِّب سيعلق في ذاكرتها، ليخلد ذكرى ذلك اليوم الذي أحسَّت فيه باهتمام زملائها وبتقديرهم لوجودها بينهم، عادت إلى منزلها تدندن الألحان وقد غمرتها النشوة وغشاها الحبور، وجدت والدها بانتظارها، فألقت عليه التحية وطبعت قبلة على جبينه.

قال:

"أجدك في مزاجٍ جيد اليوم".

"أجل يا أبي؛ فقد احتفل زملائي بيوم ميلادي، وأدخلوا السرور إلى قلبي".

"إذًا، فقد سبقني أحدهم".

أخرج هدية مُغلَّفة بعناية بورق الهدايا المزركش، وقد غلب عليه اللون الأحمر الصارخ، ثم قال:

"تفضلي، هذه لكِ".

تناولت سجى الهدية، وقد استغربت أنْ تفاجئها الحياة بمفاجأتين سارتين في اليوم نفسه، جعلت تقلّبها بين يديها تتأمل بهاء الغلاف، وارتمت في أحضان والدها الذي سألها ضاحكًا:

"ألن تفتحيها؟"

قالت:

"بلى".

فضت الغلاف لتجد صندوق موسيقى خشبي مزخرف.. أوحت هيئته بالقدم إلا أنها وجدت تفاصيله رائعة، وأبهرتها النقوش الموجودة عليه، فجعلت تتحسَّسها وتمرِّر يدها على تجاويف جرى حفرها على سطحه، قامت بتشغيله لتنطلق ألحان هادئة أسرت وجدانها، وداعبت أوتار قيثارة صدئة تسكن قلبها ولم تعرف سوى الشجون والأسى، فجعلتها تعزف مقطوعة جديدة ليتراقص قلبها طربًا، ولتطفو مشاعر فيَّاضة من حب وأنس إلى السطح، لتغشى مشاعرها القديمة ولو لوقتٍ قصير. أغمضت عينيها، وصحبتها الألحان إلى عالم ذي ألوان زاهية حيث اجتمع الأمان

والأمل، خالجت المشاعر الطيبة نفسها المُتعبَة التي أضنتها الأحزان، فهمست لها أنَّ ثمة غد أجمل بانتظارها، خلعت رداء الأسى لبرهة وشاطرتها الألحان الشجية مآسيها الجمة، فأسبلت عليها دثارًا سحريًا، لتختفي عن الأعين، وليضمر تأثيرها لأمدٍ قصير، فتحت سجى عينيها حين توقف اللحن بغتة، وأرادت أنْ تعيد تشغيل الصندوق إلا أنَّ كلمات والدها انتشلتها من هيامها بالألحان التي قصت على وجدانها أقصوصة الأمل وألهمته بمتابعة الدرب وإنْ كان عثرًا.

قال الأب:

"هل أعجبك؟"

قالت سجى:

"بالتأكيد! إنه رائع بحق!"

ابتسم الأب في رضا، ثم قال:

"اذهبي الآن لتبدِّلي ثيابك؛ فقد أعددت لك طعامًا شهيًا".

أخذت الصندوق إلى غرفتها جزلة، وأفسحت له مكانًا لتضعه بين أغراضها، لم تستطع منع نفسها من إعادة تشغيله، وحين انطلقت الألحان صحبتها مجددًا إلى العالم الوردي حيث تتوق أزهار التفاؤل لعناقها، وتسطع الشمس حاملة أملًا خلابًا ينير أزقة عقلها المظلمة، تبارى الأمل والشجون مجددًا وكاد الأمل يعلن انتصاره إذ امتطى ظهر النغمات الرقيقة وفاح عبقه مع انتشارها بالغرفة، ارتفع نداء والدها لينتشلها من أحلام اليقظة التي هامت بطرقاتها، وشردت بدروبها، وعشقت تفاصيلها الوضاءة.

"سجى، أين أنتِ؟ سيبرد الطعام".

"قادمة"

انطلقت سجى خارجًا لتلبي نداء أبيها، وجلست إلى المنضدة، وقد أسال منظر الطعام الشهي لعابها، وضعت بعض الطعام في صحنها، وجعلت تلقمه في نهم، وحين أنهته قامت بوضع المزيد، وجعلت تلتهمه كأن لم تذق طعامًا لأسبوعٍ مضى.

قال والدها مسرورًا:

"أراكِ استعدتِ شهيتك".

قالت سجى بعدما ازدردت ما بفمها من طعام:

"يبدو ذلك".

ثم قال:

"وأرى أنَّ الطعام قد لقي استحسانك".

جعلت سجى تمضغ الطعام بسرعة ليتسنى لها الكلام، ثم انتهى بها المطاف بابتلاعه دون إتمام مضغه، وقالت:

"الطعام لذيذ بالفعل يا أبي".

قال الأب:

"أنا سعيد بأنه نال إعجابك".

وحين انتهت سجى من تناول الطعام تنهَّدت بقوةٍ وقالت:

"آه.. لقد أكلت كثيرًا إلى أنْ أصابتني التخمة".

ضحك الأب وقال مازحًا:

"سيكون عليك الركض طويلًا لحرق تلك السعرات".

قالت:
"أشعر وكأنما ستنفجر أمعائي".
نهضت سجى عن كرسيها متثاقلة وقالت:
"أشكرك يا أبي، لي زمان لم أتذوَّق طعامًا بهذه اللذة".
ابتسم والدها في حبورٍ وقال:
"على الرحب والسعة يا عزيزتي".
جلبت الإبريق الأحمر البلاستيكي إذ حان أوان ري نباتات الريحان، تحسَّست التربة، وحدَّثت نفسها:
"الجو حار اليوم، لا عجب أنها جفت".
قامت بسقيها بالماء الوفير، وحدَّثتها قائلة:
"اعذريني يا نبتتي الحلوة؛ فقد غفلت عن ريك طيلة النهار حتى سرق القيظ رطوبة تربتك، لا تخافي؛ فقد عدت إليك حاملة إبريق الماء.. سأسقيك حتى ترتوي وستبقى أوراقك خضراء لا يصيبها الذبول، سأحميك بما أوتيت من قوة لتدب الحياة في أوراقك، وتدوم حيويتها، وتزهر على الدوام، كم أشتاق لرؤية أزهارك يا حلوتي!"
وضعت الإبريق جانبًا بعدما أنهت ري النباتات، وداعبت الأوراق بأناملها ثم أدنت أنفها منها لتتنشق عبيرها الذي لا يفتأ يحضر لها ذكرى أمها الراحلة، صحبت الذكرى المؤلمة والمؤنسة في الآن نفسه إلى غرفتها مثلما اعتادت أنْ تفعل كل يوم، استلقت على الفراش، وعانقت الذكرى ثم راحت تغط في نوم عميق، استيقظت ليلًا إذ أيقظتها ندبات الماضي، ولاحت لها ذكريات جعلت تجوب

فضاء الغرفة لتوقِظ حزنها من سباته ما فتك بقدرتها على العودة للنوم.

غادرت فراشها، وقصدت البراد لتفتش عما يمكنها تناوله من طعام يحوي قدرًا هائلًا من السعرات الحرارية، لم تبالِ بأنها قد تكسب وزنًا، وإنما رغبت بأنْ يسكن مذاق الحلوى الألم الذي اندلع كما النيران في نفسها، جعلت تلتهم كل ما تطاله يدها حتى كادت تختنق إثر تناولها الطعام بسرعة هائلة ونهم غير مسبوق، لم تنتظر ابتلاع إحدى القطع حتى باشرت دس قطعة أخرى في فمها الممتلئ، لم تكف عن حشر اللقم إلى أنْ استيقظ والدها ليجدها على تلك الحال، تسر إلى البراد بلواعجها فيجيبها بقطع الحلوى، كان فمها ملطَّخًا بآثار الشيكولاتة، ممتلئًا بقضمات المعجنات من شتى الأنواع، تأمَّلها والدها دهشًا، وقال:

"ماذا تفعلين يا سجى؟"

أصابها الخجل، ولم تجد فرصةً لإخفاء آثار جريمتها، فقالت بينما تحيطها الأدلة الدامغة:

"لا شيء يا أبي".

سألها:

"لماذا تتناولين الحلوى في منتصف الليل؟ ولماذا وجهك ملطَّخ هكذا؟"

ثم انتبه إلى الأغلفة المُلقاة على الطاولة، وقال متفاجئًا:

"رباه! كم تناولتِ يا فتاة؟ ما كل تلك الأغلفة الخاوية؟"

أخرسها الخجل، ولم تجد ما تبرِّر به موقفها الحرج، ألجم الإحراج لسانها، وجمعت الأغلفة المتناثرة لتودعها سلة النفايات ثم قصدت غرفتها دون التفوه بحرف تاركة والدها غارقًا في دهشته، وقد ساوره القلق بشأنها، عادت إلى الفراش محاولة العودة للنوم بعدما أتخمت أفواه حزنها بالسعرات، افترس الوحش الجائع الكثير من قطع الحلوى اللذيذة، وتوسلت إليه أنْ يلزم الصمت بعدما سدت جوعه.

كانت على يقين من أنَّ هدوءه النسبي لن يدوم طويلًا؛ لذا فقد حاولت الخلود للنوم قبل أنْ يستيقظ المارد من جديد، ويغادر قمقمه ليقلق منامها، ولا يبقى للراحة معنى، أفلحت في نيل ساعتين من النوم، ثم استيقظت لتجد نفسها ترمح في بستان الذكريات من جديد، لمحت طيف ذكرى عابرة، مرَّ صوب ناظريها وخالج خلدها مثيرًا غبار أيام بائدة، تناثر الغبار، وأصاب عينيها فدمعت إذ تهيجت، مرَّ بها حزن حسبته عارضًا إلا أنه أطال المكث وزحف على وجدانها فبث به سما ناقعًا، وخضبه بالسواد، غشي اللون الأسود مشاعر زكية نضرة زارت نفسها في الأيام القليلة الماضية، أبت نفسها التواقة للأمل أنْ تفسح للحزن مجالًا إلا أنه أقحم نفسه بين خلجاتها.. لم تعلن الاستسلام، وإنما تهيأت للذهاب لعملها.

خرجت بعد ذلك إلى الردهة، وألقت التحية على والدها ثم غادرت قاصدة الشركة.

عانق الأمل الوليد في نفسها ركائز إرادتها التي تأبى الخضوع لسلطة الحزن القاتل، تشبَّثت بجذوع أشجار عكفت على سقيها مرارًا لتزهر أملًا وسعادة محضة، لم تتكلَّف الرضا وإنما ولجت أبوابه

بقلبٍ يعتنق أفكارًا خلابة، ويعانق طموحه عنان السماء، دخلت مكتبها وانغمست في أداء عملها غير عابئة بتناثر غبار الذكريات؛ فكانت تفرك عينيها بين الفنية والأخرى لتزيل ما أصابهما من جراء تناثره، وتحدِّق بالشاشة لتصب جل تركيزها على عملها فحسب.

وفي تلك الأثناء، كانت أفكار متضاربة تطوح عقل شاهر يمينًا ويسارًا، تقذف به تارة إلى ينابيع السعادة وتارة إلى مستنقعات الإحباط ذات الرائحة العطنة.

بلغ التردد منه مبلغًا، وجعل يدير فكرة مُلحة في ملكوت رأسه.. يقلِّبها في قدرٍ لتُطهى على نار هادئة جاهلًا ما إنْ كان سيتسنى له تذوق نتيجة شهية أم أنَّ طهيه للفكرة سيؤول إلى فشل ذريع، فتفوح رائحة الاحتراق علنًا، جعل يذرع غرفة مكتبه جيئة وذهابًا حائرًا فيما سيصنع، حاول تشجيع نفسه مرارًا إلا أنَّ الخوف لم يكف عن التردد بجدران عقله، انطلق صداه مدويًّا ما ضاعف من تردده.. وأخيرًا استجمع شجاعته، وحدَّث نفسه قائلًا:

"سأفعلها وليكن ما يكون".

كان قلبه الغارق في الهيام هو ما شجَّعه ليتحدى خوفه المضطرم، والذي صده طويلًا عن طلب ما يريد، طرق باب غرفة سجى فأذنت له بالدخول، دلف إلى الداخل بينما يتصبَّب جبينه عرقًا، ويختلج قلبه بين ضلوعه إذ يصدح بنبضاته كما طرقات مدوية، اصطدم بقوة بضلوعه مضاعفًا من اضطراب شاهر الذي بالكاد وجد الكلمات ليقول:

"صباح الخير يا سجى".

أجابت سجى بابتسامة مُرحِّبة:

"صباح الخير يا شاهر".
اضطرب شاهر وألجم الخوف لسانه، فطنت سجى إلى اضطرابه، فسألته:
"ما بكَ يا شاهر؟ أثمَّة خطب ما؟"
هزَّ شاهر رأسه نفيًّا، ثم أعاد ترتيب الكلمات بذهنه الذي ضربته أمواج التوتر، وأخيرًا بصق الكلمات التي أطال كتمانها:
"أودُّ التقدُّم لخطبتك!"
بهتت سجى واحمرَّ وجهها خجلًا، أما شاهر فقال مستعجلًا الجواب:
"ما الأمر؟ هل قلت شيئًا خاطئًا؟"
حاولت سجى كظم ضحكاتها إذ فضح وجهه اضطرابًا عارمًا، واحمرت وجنتاه خجلًا، أفلتت منها بضع ضحكات مقتضبة، وقالت بصوتٍ تقطعه تلك الضحكات التي لم تفلح في كتمانها:
"ليتك ترى وجهك يا شاهر!"
قال شاهر منزعجًا:
"دعك من وجهي، وأعلميني ردك".
قالت سجى محاولة الحفاظ على جديتها:
"شاهر، أنا فقط متفاجئة.. لا أنكر أني توقَّعت ذلك إلا أنَّ وقع كلامك فاجأني رغم كل شيء".
قال وقد ارتسمت على وجهه أمارات المفاجأة، فجحظت عيناه، وفغر فاه، وارتفع حاجباه عاليًا:
"توقَّعتِ الأمر؟"

أومأت برأسها، وقالت باسمة:
"أجل".
بلغ خجله أوجه إذ أدرك أنه لا يحسن إخفاء مشاعره، ثم سأل سجى بصوتٍ خفيض بالكاد بلغ مسامعها:
"ما رأيك إذا؟"
صمتت سجى برهة، وأخفضت بصرها مبتسمة، كست علامات الخجل وجهها، وتداعت أسوار كانت قد نصبتها حول قلبها لتسمح لمَن أكنَّت له كثيرًا من المشاعر الطيبة بأنْ يلج حبه قلبها، ويضمِّد جراحها الغائرة. أسرها شاهر بسذاجته في عرض الأمر، وبكلماته الصادقة التي أصابت الهدف، ولم تضل طريقها إلى قلبها المتخم بالأحزان، أجلت كلماته عن قلبها بعض أحزانه، واحتلت مساحة لا بأس بها من نسيجه الذي أتلفته الأيام بتتابع نوازلها.
قال شاهر:
"أيعني ذلك بأنكِ موافقة؟"
أومأت سجى برأسها فانتفض قلب شاهر فرحًا حتى كاد يغادر مكانه، جعل قلبه يقرع طبول الفرح، ويطلق الزغاريد احتفالًا، لم يحاول شاهر إسكاته، ولم تسعه السعادة الغامرة.
غادر مكتب سجى عائدًا إلى مكتبه بينما تجلجل أجراس الحبور في رأسه مُحدِثة صخبًا عارمًا، حلَّقت روحه في فضاء السعادة الرحب، وجعل يدندن ألحان الزفاف تيمُّنًا بها، وعزم على أنْ يغدو التفاؤل ديدنه، ابتاع قطع الحلوى، وشرع يوزِّعها على زملائه في خضم نشوته، وأجزم بعضهم بأنه قد فقد عقله، لم ينف التهمة عن نفسه فقد يكونوا محقين إذ هامت روحه في رحاب سعادة

وليدة، ولفظ الواقع البائس لتقلع قدماه عن أرضه المليئة بالحفر، ويجوب سماوات النشوة بأجنحة بيضاء قوية، وليرفرف مخلفًا أثرًا في سحب قطنية متناثرة.

عادت سجى إلى المنزل وقد امتلأ قلبها بالأنس، ووجدت السعادة حيزًا في نفسها لتحتله مصطحبة إياها إلى جداول الأمل لتنهل منها ما شاءت، ولتذر الحزن خلفها ليسلك طريقه منفردًا، سنحت لها الفرصة لتخوض عوالم وردية زينتها قطوف من شجيرات مزهرة، فجنت أطيب الثمار وألذها، وتنشَّقت عبيرها الساحر، زارت ينابيع لا يكدرها كمد، وجعلت تعب ماءها حتى ارتوت، وجد الأمل براحًا في نفسها ليرتع فيه وليباشر رحلته بين خلجاتها إلى أنْ صدقته، أسعدها صدق وجوده وأضفى بريقًا خلابًا على نفسها التي طال انطفاؤها، تقدَّمت نحو والدها الجالس في الردهة، وقالت خجلة: "هناك مَن يرغب بالتقدُّم لخطبتي يا أبي".

تهللت أساريره إذ حان أوان تسليمه لأمانته، غمرته السعادة ولم تسعه الدنيا على رحابتها، سالت دموع الفرح على وجنتيه ما إنْ سمع الخبر، وضم ابنته إلى صدره باكيًا، وقال:

"آن الأوان يا صغيرتي.. حان الوقت لأسلِّمك لمَن سيصونك من بعدي".

تعجَّبت سجى من ردة فعل والدها المرهفة، والتي غمرها فيض مشاعر جياشة.. قالت:

"ما بكَ يا أبي؟ ما لي أجدك متأثرًا إلى هذا الحد؟"

قال ولم يتمالك نفسه بعد:

"إنها عبرات الفرح يا صغيرتي، سيكون يوم رؤيتك بفستان الزفاف أسعد أيامي على الإطلاق".

ارتمت سجى بين ذراعيه لتصيبها عدوى تأثره، وتذرف الدموع بدورها، طال عناقهما، واكتنفته الدموع التي خلدت مشاعر طيبة مرهفة، أدركت سجى أنها غرست للتو نبتة ريحان جديدة فواحة في أصيصها، وأنه يجدر بها الاعتناء بها ليبقى عبيرها زكيًا خالدًا. جلبت الإبريق، وغمرت التربة بالماء لتبقى وصية أمها قيد التنفيذ، ولجت غرفتها ولم تدع نشوتها للحزن مجالًا ليسكن فؤادها، بل طردته شر طردة، ليبيت خارجًا، ويرحل بعيدًا.

جعلت تدور بغرفتها وخُيِّل لها أنها تحلّق عاليًا في سماوات الحبور، وحين أصابها الدوار، ارتمت على فراشها بينما تموج الأشياء أمام ناظريها، شعرت وكأنما ازدردت للتو إكسير السعادة وأنَّ آلامها رحلت إلى غير رجعةٍ.

تقدم شاهر لخطبة سجى، وحين بلغ منزلها تلقَّاه والدها بحفاوةٍ غامرة، جعلا يتحاوران ويتمازحان، وكأنما عرفا بعضهما لسنين مضت، شعر الأب بالارتياح لخاطب ابنته الذي ولج قلبه دونما استئذان، وافق على الخطبة، وشعرت سجى بالأمل يناجيها، ويسرُّ إليها بكلماتٍ تدر تفاؤلًا على روحها التي آن الأوان لتحلّق في سماوات رحبة، ولتدغدغها نغمات الفرح التي طرقت مسامعها، وألقت السعادة بظلالها على وجدانها الذي تعطر بعبير زكي، وأشرق بنور مبهر حمله أمل وضَّاء، تمنَّت لو شاركتها أمها تلك اللحظات و شاطرتها الأفراح إلا أنها أبت أنْ تجرَّها الذكريات إلى سراديب الحزن مجددًا، فتعلق بها ولا تستطيع الإفلات، أصرَّت على الاستمتاع باللحظة بشتى تفاصيلها، وشيَّعت الذكريات إلى مكمنها لتبيت فيه هانئة، وعدتها الأيام بأنْ يزورها الهناء ليجلي التعاسة عن روحها الغضة، فلا يتبقى سوى شجن يعتري خلدها من آنٍ

لآخرَ، زارت ينبوع السعادة وجعلت تنهل منه ما يكفيها.. حلَّت السعادة نزيلة على وجدانها، فعلقت به آثارها، وتدفقت مياهها لتغمر وديان الكآبة، وتمحو ما ترسَّب في نفسها من بقايا ألم مبرح، فطنت إلى أنَّ مياه أحزانها الكدرة ستنضب، وسيحل محلها رحيق الحب وشذاه حلو المذاق، سرعان ما سيخضب الفرح حياتها، ويكسوها برداء مزركش، وستزهو بردائها في طرقات الأمل، وتتبختر في دروبه الفسيحة وحقوله الخضراء الرحبة، آن الأوان لتتعلَّق بآمال ساقها لها اليوم الذي صارحها شاهر فيه برغبته في خطبتها، ستتشبَّث بخيوطها خشيةَ الضياع، ولن تفلتها مهما كلَّفها الأمر.

تمت الخطبة، وظنت سجى أنَّ الأيام لن تخبئ لها سوى المفاجآت السعيدة، وأنَّ خطبًا لن يكدِّر سعادتها الوليدة، إلا أنَّ القدر كان له رأي آخر؛ ففي غضون أيام، لاحظت سجى أنَّ إرهاقًا أصاب والدها، فلم يعد بوسعه الإتيان بما اعتاد فعله سابقًا من طهو للطعام وخلافه، كما لاحظت سعاله المستمر الذي أخذ يزداد باضطراد حتى يكاد يلفظ أنفاسه من قوة السعال الذي استحال مدمدمًا في بعض المرات، طرحت على والدها زيارة الطبيب مرارًا، فكان يستهين بالأمر وينكر مرضه قائلًا:

"أنا بخير فلا تقلقي.. لقد أصبت بالبرد على الأرجح لا أكثر".

فتقول سجى إذ يخالجها القلق:

"أبي، أخشى أنَّ الأمر يتجاوز نزلة برد.. أخشى أنَّ الأمر خطير بالفعل، لا ضير أنْ نستشير الطبيب".

فيضرب بكلامها عرض الحائط ويقول:

"لا تهولي.. الأمر بسيط؛ فلا داعي للفزع".
فتعرض عنه، والقلق لا يفتأ يمزِّق أشرع قوارب الاطمئنان لديها، فتغرق إلى قيعان مكتظة بسفن الأمل الغارقة.
تتساءل هل سيلقى أملها حتفه بين تلك السفن أم أنه ستكتب له النجاة ويطفو مجددًا، روعتها ظنونها، وخلقت اضطرابًا عارمًا في سطح وجدانها الذي ظلَّ ساكنًا لأمدٍ لا بأس به. ساورها الشك في صدق كلام والدها، وظنت أنه لا يقول ذلك سوى لطمأنتها، وأنه يدرك فداحة المرض الذي ألم به، خالطها القلق ولم يذر ذرة اطمئنان في كيانها المذعور على حالها، بل سحقها ونشر أذرع الخوف العملاقة في وجدانها، فعاثت به فسادًا.
تمخضت قريحتها عن ظنون مكفهرة جعلت تطوح سكينتها يمينًا ويسارًا، و أضرمت نيران جحيم الترقُّب بين جنباتها.
وذات يوم، جلست سجى بمكتبها شاردة الذهن تحدِّق بالفراغ، استدعى ذهنها أصواتًا أصدرتها أبواق القلق، حدَّثها أحد تلك الأصوات عن خطر محدَّق يتربَّص بوالدها.. لم تكن على استعداد لخسارته كما سبق وخسرت أمها، وآمنت بضرورة إقناعه بتلقِّي العلاج إلا أنها جهلت السبيل إلى ذلك. كان من العسير تبديل معتقده إذ آمن بأنَّ ما ألم به هين، ولا داعي للقلق حياله، جاءها شاهر فلاحظ شرودها واكفهرارها.. قال:
"ما بكِ يا سجى؟ أنتِ لا تبدين على ما يرام".
صارحته بالحقيقة من فورها:
"والدي مريض يا شاهر، وهو ينكر خطورة مرضه.. أنا أوقن أنَّ الأمر جلل، بينما يدعي أنني أبالغ ويرفض رؤية الطبيب".

صمت شاهر برهة، واستغرق في تفكير عميق، بدا عليه الحزن، وشاب ملامح وجهه الحيرة والقلق. قالت سجى:
"لا أدري ما أصنع.. لقد تمكَّن مني القلق، وتأجَّجت نيرانه لتقوض قدرتي على التفكير، لست أهتدي إلى حلٍّ، وأشعر بأني ولجت متاهة شيَّدت جدرانها من حيرتي المزعجة، أخشى عليه كثيرًا، وصرت أجهل كيف أنقذه، أخشى أنْ أفقده يا شاهر".
أبصر الدموع في عينيها، وآلمه حديثها، وحرَّك مشاعر قلق بين جنبيه، أشفق عليها من أمواج خوف عارمة تضرب شاطئها، وقال:
"الأمر محيِّر بالفعل، إلا أنَّ رؤية الطبيب لم تعد خيارًا مطروحًا يمكننا نبذه أو تبنيه.. بل أضحت ضرورة ملحة يجب الامتثال لها".
سألته سجى مُتعجِّلة الجواب:
"ماذا أفعل إذا؟"
قال شاهر:
"اتركي الأمر لي.. سأقنعه بزيارة الطبيب".
تنهَّدت سجى وقد ولَّدت كلماته ارتياحًا نسبيًا في نفسها الغارقة في بحر القلق، كانت حذرة لكي لا يسحبها الارتياح للاطمئنان لفواجع الأقدار، توقَّعت أنْ يحل الأسوأ في كل لحظة، توقعت أنْ يحل نزيلًا على حياتها، وأنْ يصبغ أيامها بلونه القاتم، ويدير لها وجهه العبوس ليرمقها بنظرات حادة تكاد تشطرها نصفين، توسَّدت أشواك الحذر، فبات نومها مضطربًا، وأخذت تتقلَّب بين ذكريات فواجع نزلت على حياتها القصيرة نسبيًا، فتستعيد ذكرى الألم لتجده مُوجعًا كما كان، ويقلقها حد الذعر أنها من الممكن أنْ تعاصره من جديد.

كانت آسفة لأن انهيار حياتها بات وشيكًا إنْ تحقَّقت مخاوفها، جعلت تذرع ذكرياتها جيئة وذهابًا لعلها تجد أساليب انتهجتها سابقًا، وهونت عليها الفواجع المتتالية.

قررت أنْ تحتفظ بها في جعبتها كما رماح مشحوذة لتواجه بها ما قد يحمله الزمان من مفاجآت غير سارة قد تعترض طريقها مجددًا، رجت عقلها أنْ يبتكر مزيدًا من وسائل اتقاء الصدمات إذ لم تجد نفسها قادرة على احتمال فقد جديد، وروعتها سيرة الفقد التي أخذ عقلها يردد أصداءها بين جدرانه وفي تجاويفه الخاوية.

قال شاهر منتزعًا إياها من أفكارها:

"لا عليك.. سنجد حلًا ما".

ترك شاهر غرفة مكتبها لتغرق في بحر أفكارها مجددًا، ولتزدرد بعض مياهه المالحة التي دلفت إلى فمها عنوة حين حاولت التنفس تحت السطح. كادت تختنق من جراء أفكارها المتعاقبة كما الموج الهادر، والتي زادت مياه البحر ارتفاعًا، وأسرت إليها بأنَّ غرقها بات وشيكًا، سرعان ما سيؤول ثباتها الانفعالي إلى جزع، واهتداؤها إلى ضياع كما سيخفت نور قنديلها لتصارع مخاوفها في ظلمات مطبقة، سيخفت ذلك النور الذي استمدت جذوته من شجاعتها النادرة إذ ستدبر شجاعتها وتفر راكضة تاركة جثة عنتيل زعم أنه يستطيع امتلاك زمام الأمور، وواجه الصعاب بصدرٍ عار إذ ضمر خوفه ولم يعد موجودًا، تجسَّدت عزيمتها القوية في ذلك الجسم عريض المنكبين، وسرعان ما سيسقط جثة هامدة بعدما يلفظ أنفاسه الأخيرة في حضرة نوازل الأيام وآلام حملتها الأقدار.

عادت سجى إلى منزلها لتجد والدها يسعل بقوة، وقد ازدادت وتيرة سعاله حتى كادت روحه تفارق جسده في خضم تلك النوبة

العنيفة، جلبت له كأسًا من الماء البارد فشرب ثم لم يلبث يلتقط أنفاسه حتى شرع يسعل من جديد، أعانته على الجلوس وبقيت إلى جواره حتى آلت النوبة إلى الانتهاء. همس مُتعبًا:

"لا تخافي يا ابنتي؛ فأنا بخير".

صرخت سجى:

"لا تغرني بزيف اطمئنان؛ أنتَ لست بخيرٍ، وأنتَ تعي ذلك جيدًا".

صدمته لهجتها الحادة، وقال:

"بلى يا حبيبتي، أنا بخير حال.. ليست سوى وعكة صحية عابرة.. سرعان ما ستمضي وسأعود إلى سابق عهدي".

قالت سجى باكية:

"لا تكابر يا أبي، ولا تخدع نفسك بتهوين الأمر، لست قادرة على احتمال فقد جديد؛ أرجوك ألَّا تسقني الكأس ذاته مرتين".

قال والدها متفاجئًا:

"لا يا عزيزتي، لن يحدث هذا أبدًا، الأمر وما هنالك هو أني متوعك بعض الشيء، وسرعان ما ستلحق تلك الوعكة بما سبقها، وستتحسَّن الأمور".

قاطعته سجى في غضبٍ:

"كف عن ترديد ذلك الكلام عن أنها وعكة عابرة، كلنا يعلم أنها ليست كذلك، وأنك يجب أنْ تراجع الطبيب".

أفزعه احتدادها، فصمت قليلًا وارتسم على وجهه الحزن، ثم قال ما إنْ أفاق من شروده:

"آه كم تشبهين أمك يا سجى! كانت تحتد متى لاحظت تهرُّبي من مواجهة خطب ما، وأنا لا أحسن سوى الهرب، كانت تلاحظ

اختلاقي لوهم زائف يدعي كون الأمور على خير ما يرام، وتكتشف كذبي في نهاية المطاف، وتباشر الصراخ بي مثلما فعلت لأعرض عن سلوكي الذي يدفعها للجنون..".

صمت قليلًا ثم تابع:

"لن أذهب إلى أي مكان، أفضِّل أنْ أموت كريمًا بمنزلي على أنْ يتم تشخيصي بمرض عضال لا تجدي معه محاولات الأطباء، فأظلُّ لأشهرٍ أنتظر نهايته الحتمية في قلقٍ يعذِّبني ليل نهار إلى أنْ تفيض روحي إلى بارئها، لا أرغب بأنْ أصارع الموت طويلًا طريح سرير بمشفى، وأعاني كثيرًا، وأتعذَّب حتى يمن عليَّ الهلاك بزيارة أخيرة، لا أريد ذلك ولن أراجع الطبيب".

قالت سجى:

"لا تقل ذلك يا أبي.. سيساعدك الطبيب حتمًا، وستُشفى وينتهي أمر تلك الوعكة، فلا تخف؛ لن يكون الأمر بالسوء الذي تعتقده".

ضحك والدها هازئًا:

"ليست محض وعكة يا سجى.. أرجوكِ أنْ تدعيني أموت كريمًا دون الكثير من المعاناة".

قالت سجى:

"ولكن يا أبي.."

قاطعها قائلًا:

"أرجوكِ يا سجى، لا أريد سماع المزيد، ولا أريد الحديث بهذا الشأن مجددًا".

ابتلعت كلمات النصح، فلم تخرج إلى النور، عقد صدوده لسانها، ومضت تجر قدميها إلى غرفتها، وما إنْ أوصدت الباب حتى

استسلمت لبكاء مرير، وغشيت قلبها تعاسة لم تعرف لها مثيلًا.. أطلقت أنينًا لم يسمعه سواها، وآزرت شهقاتها وتنفسها المضطرب أنينها حاد النبرة، فخلق جمعهم جنازة لفرحها الوليد، وشيَّعوه بالدموع إلى مثواه الأخير. أبت سجى الاستسلام للتعاسة بعدما زارت السعادة حياتها، وبعدما اكتست أيامها ذات الثوب الخلق رداءً جديدًا مزركشًا.

حاولت التفكير في كيفية إقناع والدها بزيارة الطبيب إلا أنها لم تهتدِ إلى حلٍّ أمام إصراره على رفض الأمر، قررت أنْ تلزم الإلحاح إلى أنْ تلين شوكته، ويقرر الخضوع لرغبتها.

رن جرس الباب، فأسرعت سجى إليه لتفتحه فإذا به شاهر، رحَّب والدها بقدومه ودعاه للدخول. جلس كلاهما في الردهة، وذهبت سجى لتعد الشاي.

قال شاهر:

"كيف حالك يا والدي؟"

اصطنع الأب ابتسامة باهتة شابها الكثير من الألم وقال:

"أنا بخير يا بني"

باشر شاهر الحديث في الموضوع الذي ابتغى التطرُّق إليه، فلم يسلك سبلًا ملتوية، وإنما قال:

"عرفت من سجى أنك مريض، وعرفت كذلك أنك لا تريد زيارة الطبيب".

تنهَّد الأب، وقال:

"لا بأس، لم تعد غريبًا يا بني.

اسمعني، لا جدوى من معرفة حقيقة ما يجري معي إنْ كانت النتيجة واحدة وحتمية، أنا أعاني مرضًا قاتلًا لا يرجى برؤه؛ فلا داعي لإطالة معاناتي، لندع الأيام تفعل فعلها، فأموت هانئًا عزيزًا على فراشي الوثير بين أحبتي الذين أكنُّ لهم كثيرًا من المشاعر الطيبة".

قال شاهر:

"وسجى؟"

قال الأب مستغربًا:

"ما بالها؟"

"ألم تفكر فيما سيحل بها؟ ألا تريد المحاولة لأجلها على الأقل؟"

استنكر الأب:

"وهل ستسعدها رؤية والدها مهانًا طريح أسرَّة المستشفيات، وقد أنهكه مرضه، وفتك به الألم، وأخذ يصرخ مستغيثًا فلا يلقي أحدٌ لاستغاثته بالًا؟!"

قال شاهر:

"لن يحدث هذا، صدقني!

ولكن امنح العلاج فرصةً".

قال الأب منزعجًا إذ رغب بإنهاء الحوار:

"لا أريد سماع كلام بهذا الشأن، الأمر منتهٍ بالنسبة إليَّ، قد تظنني أنانيًا، ولا ألومك إلا أني لا أطيق خوض تلك التجربة ذات النهاية البائسة".

قال شاهر مستنجدًا بعواطف الأب التي أوت إلى مخدعها، وتركت كلامًا ينضح بالأنانية ليجري على لسانه:

"وماذا عن سجى؟ هل ستتركها لتواجه المصير الذي لم تكد تفر من بين براثنه حتى لاح في أفقها مجددًا؟! ألم تفكر بها؟! ألم تفكر بالحزن الذي سيذيقها الويلات، ويقتل سعادتها وليدة الأمس القريب؟ ألم تفكر فيما سيحل بها حين يفارقها والدها الذي وجدت فيه العوض عن أحزان كبلتها إثر رحيل أمها؟"

صمت الأب برهة، ثم قال:

"بلى فكرت بها، ولكني سأموت على أية حال، فلا داعي لمحاولة لن تثمر سوى العناء".

قال شاهر متوسلًا:

"أبي، أرجوك.. أنتَ تتوهَّم أنَّ محاولات الطبيب لن تفلح إلا أنك لم تمنحه فرصة بالأساس، أرجوك أنْ تدعه يفحصك، وسنبت بأمر العلاج لاحقًا".

صرخ الأب منزعجًا:

"لن أذهب، فأريحوا حناجركم التي بح صوتها من جراء تكرار الكلام نفسه".

قدِمت سجى حاملة أكواب الشاي وقالت بعدما بلغتها كلمات والدها الأخيرة وقد فطنت إلى فحوى حديثهم وقرأت أثره في وجهيهما العابسين:

"لن أمل تكرار الكلام نفسه يا أبي مهما بح صوتي".

وضعت الأكواب على المنضدة، وجلست على الأرض عند قدمي والدها، وقالت راجية إياه:

"أتوسَّل إليك يا أبي أنْ تباشر العلاج.. أرجوك؛ فلست أستطيع الحياة بدونك".

انهمرت عبراتها بينما قالت:
"لا تفارقني أرجوك.. أتوسُّل إليك ألَّا تتركني".
فرَّت الدموع من مقلتي الأب بدوره، ورقَّ لحال ابنته التي أعربت عن خوفها بصدقٍ، وعرضت أعمق مخاوفها ليبصرها والدها ولا يضام في رؤيتها مطلقًا.
تجسَّدت مخاوفها نصب عينيه، وأشفق عليها من مشقة الألم الذي حملته منذ رحلت أمها.. وأخيرًا قال:
"حسنًا يا ابنتي، كما تشائين.. إنْ كان هذا يريحك فلن أتوانى عن فعله، ولن أتردَّد للحظةٍ واحدة بعد".
ارتمت بين أحضانه، وتركت لدموعها العنان، لم يضطر عقلها لاختلاق حجة للبكاء بل رحَّب بالتأثر البالغ الذي أصابها، وأنزله في صحن داره خير مَنزِل، ودعا دموعها لمأدبة فاخرة.
أجابت دموعها الدعوة الكريمة، وحضر شجنها مواسيًا قلقها بشأن صحة والدها، اجتمعوا كلهم إلى المأدبة التي حملت أطيب الأصناف، وتكفَّل القلق بالتهام الطبق الأكبر بمفرده، لم يكن الطبق الرئيس سوى سكينتها المفقودة، وقد نشب القلق بها أسنانه الحادة والمدببة فمزَّقها إلى أشلاء، أما الحزن فنفث سمومه الناقعة في الطعام، وكرَّس جهده ليردي حاضري المأدبة، أنهى الحضور الطعام، وأصابتهم التخمة غافلين عما ينتظرهم لاحقًا، جرى التهام السكينة والأمل والحبور صادقه وزائفه، ابتلعتهم جنود الحزن والقلق فلم يبقوا سوى فتات مبعثرة، تضخَّمت أجساد الحضور ولم يبد أنَّ السموم الناقعات قد أثرت بهم كثيرًا.
ساد الحزن الدار، وبات آمرًا مطاعًا، وجعل القلق يرمح في أرجائها،

وصنعت الدموع الوفيرة بركة راكدة تعكس صفحتها وجه الحزن العبوس. اكتظت الدار بقاطنيها من جنود البؤس، وانطلقت أوامر الحزن ونواهيه لتذرع براحها ذهابًا وإيابًا. انتفت معاني الراحة، وانخرط الجميع في عمل دؤوب إذ أعلن عقل سجى حالة الطوارئ التي توسَّمت أنْ تفلح زيارة الطبيب في إخمادها.

اصطحبت سجى والدها إلى الطبيب ورافقهم شاهر، قام الطبيب بفحص الأب، وطلب بعض الفحوصات ليصل إلى التشخيص السليم.

أجرى الوالد الأشعة وسائر الفحوصات ثم عاد لزيارة الطبيب مجددًا، وداخله ينضح خوفًا ويصدح باعتقاد راسخ بأنَّ الأسوأ بانتظاره.

خالجه شعور مخيف بأنَّ أيامه باتت معدودة ولم ينتظر إلا أنْ يؤكد الطبيب صدق ظنونه، انتظر في ترقُّب بينما يتأمل الطبيب الأشعة، وجعلت سجى تهز قدميها توترًا، وأخيرًا تفوَّه الطبيب بكلماتٍ مقتضبة:

"للأسف إنه سرطان الرئة، والمرض في مرحلة متقدمة".

شهقت سجى ذعرًا، وانتفض جسدها ليتخذ وضعية التأهب، وكأنما بات على استعداد لقتال التشخيص الجديد، أو لمصارعته في حلبة ليجهز عليه، ويقتله بضربات قاضية في لحظةٍ حاسمة. سيبارزه ولن يتركه على قيد الحياة مهما توسَّل له بأنْ يبقى على حياته، أنكر عقلها ما سمعه للتو، ونفاه إلى مزبلة الأنباء دون نية لإعادة الاستماع إليه. طغى الخوف على وجدانها، وأسرها الألم في شباكه رغم محاولاتها المستميتة لإنكار الخبر المؤسف وتنحيته عن ذهنها.

طفت ذكريات مروعة إلى سطح وجدانها، وتمثَّلت في مرض أمها، وعجز الأطباء عن مداواتها، ومفارقتها الحياة في نهاية المطاف.
لم يبد الأب جزعًا وكأنما كان يعرف بالأمر من قبل.. لم تتبدَّل ملامحه قط، وحافظ على وجهٍ جامد خالطته خيوط بؤس شديدة الدقة.
قال في هدوءٍ غريب:
"كم تبقَّى لي؟"
فاجأ سؤاله وسلوكه الطبيب الذي أجاب:
"ستة أشهر على الأكثر".
تلقَّى الأب النبأ بابتسامة واهنة، وأومأ برأسه في تسليم، صعقت سجى، وطالعت والدها بأعين يتفجَّر منها الخوف كما يلفظ النبع دفقات مياه قوية تميط كل ما يعترض طريقها، وتقذف به بعيدًا، لم تتلفَّظ بحرفٍ لدقيقة كاملة، وجعلت تنقل بصرها بين والدها وبين شاهر الذي نضحت عيناه بتعاطف وتأثُّر هائل.
عقد خوفها الجسيم لسانها، فلم تنطق كلمة لتواسي والدها إذ كانت بحاجةٍ لمَن يواسيها بالأساس. وأخيرًا أحاطته بذراعيها، وانفجرت في بكاءٍ حاد كاد يستحيل صراخًا، وقف شاهر مكتوف الأيدي بينما تشج صرخاتها فؤاده وتدميه، كاد الخبر يذهب لبَّها، وتلقفت الصدمة بذراعين أبيا أنْ يحملاها.
ناءت بحملها وانهارت إذ قوض الخبر بنيانها الذي تماسك طويلًا، فتفتتت لبناته واستحالت غبارًا وركامًا رماديًا، دفنت تحته إرادتها وبات من العسير إخراجها، لم تستطع التصديق وبلغ بها الإنكار مبلغًا، وتمادى ليجعلها تكذِّب كل ما سمعت؛ حفاظًا على سلامة عقلها.

أما الأب فتجمَّد ولم يعبأ كثيرًا ببكاء ابنته، بل شرد ذهنه بعيدًا ليعانق بأفكاره الداكنة مراسم الرحيل، جعل يفكر فيما سيحدث له وكيف سيمضي أيامه الأخيرة وما إنْ كان سيكابد ألمًا مبرحًا لا ينفك يبرح جسده حتى يعود مزمجرًا.. جعل يفكر كيف ستمضي ابنته حياتها من بعده، نظر إليها وداعب خصلات شعرها برفقٍ قائلًا:

"لا تخافي يا عزيزتي؛ فستكون الأمور على ما يرام".

عانقت عيناها الدامعتان عينيه الشاخصتين، وأسرت لهما بخوفها الذي لا يفتأ يمزق نسيج اطمئنانها، لزمت عينا الأب صمتًا مطبقًا، مما جعل سجى تنفجر باكية من جديد، تنحنح الطبيب وقال مقاطعًا اللحظة المؤثرة:

"سأصف لك بعض المسكنات؛ فقد بلغ المرض مرحلة متقدمة قد لا يجدي العلاج معها نفعًا، آسف؛ فهذا كل ما أستطيع فعله".

أومأ الأب برأسه مجددًا، ولم يُبدِ تأثرًا يُذكَر. قال مخاطبًا ابنته:

"هيا يا ابنتي؛ فلا داعي لبقائنا هنا".

ثم التفت للطبيب قائلًا:

"شكرًا لكَ.. أظنهم قد ارتاحوا إذ سمعوا التشخيص بآذانهم".

ضحك قليلًا ثم تابع:

"يمكنني الآن أنْ أنعم بالهدوء دون أنْ يلح عليَّ أحدهم لأزور الطبيب".

أخذ الأب بيد ابنته ونظر في عينيها باسمًا ثم قال:

"أنا مَن سيتكئ إليكِ الآن.. آمل ألَّا أثقل عليك كثيرًا".

هزت رأسها نفيًا، بينما تتلألأ الدموع في مقلتيها. قال الأب:

"والآن وقد باتت أيامي معدودة آمل أنْ يكون مروري خفيفًا.. لا تحزني يا ابنتي وتحلي برباطة الجأش؛ فالجزع سيورثك من الألم ما لا تطيقين".
مسح الأب دموعها بأنامله، وغادر غرفة الكشف متكئًا على ذراع ابنته التي عاهدت نفسها على أنْ تحسن رعايته.

تدهورت حال الأب في الأيام التالية؛ فبلغ منه الوهن مبلغًا، وكانت سجى هي مَن يتكفَّل بشتى أموره إذ لم يعد قادرًا على الإتيان بأبسطها.
كانت تطعمه، وتحمِّمه، وتبدِّل ثيابه، وتقرأ له الكتب في محاولة منها للتسرية عنه وتسليته بمحتوى الكتب عن آلامه الجمة ومعاناته الهائلة، التي لا تفلح المسكنات بجرعاتها العالية في طمس جميعها، وكلما فقد مسكن مفعوله، اتصلت بالطبيب ليرفع جرعته أو ليضيف سواه، شعرت بأنها تواجه عدًّا تنازليًا زاد من توترها، عكفت على رعاية نباتات الريحان، فأسرفت في ريها إذ ظنتها حصن علاقاتها المنيع؛ حيث اعتقدت أنَّ ريها سيكفل لعلاقتها الأمان، وأنها ستكون بخير ما دامت الرياحين خضراء مورقة، كانت كلما داهمها خوف هرعت إلى النباتات وغمرتها بالماء.. لزمت تصرُّفها القهري لأشهر ظنًّا منها أنه يحمي علاقتها بوالدها من خطر الفناء المحدق.
ومع مرور الأيام، نسيت أمر المُهلة التي حددها الطبيب.. كانت تجلس والدها على الكرسي المتحرك إذ لم يعد قادرًا على الوقوف وتخرجه إلى الشرفة قائلة:

"الشمس رائعة اليوم، ما رأيك بالقليل من الضوء والدفء؟ ألن يكون هذا رائعًا؟"

ابتسم الأب وأومأ برأسه موافقًا.. ألبسته سترة، وأخرجته؛ ليتنسَّم هواءً منعشًا، ولينعم جسده الواهن بدفء أشعة شمس الشتاء.

وجدت ملامحه أكثر وضوحًا في ضوء الشمس الذهبي؛ غزت تجاعيد غائرة جبينه، وبرزت عظام وجهه إذ فقد الكثير من وزنه، آلمتها رؤيته على تلك الحال، وافتقدت وجهه القديم الذي لطالما نبض بالحياة.

توسَّمت أن يفلح النسيم العليل في التخفيف عنه وتفريج كروب تتداعى فوق رأسه كما بنايات آيلة للسقوط، وتوسَّمت أنْ تضيء أشعة الشمس القوية ظلمة تشكَّلت بين جنبات نفسه خائرة القوى. اعتقدت بأن زهور الأمل الذابلة داخله تفتقر للضوء، وأنه سيفلح في إحيائها بصورة أو بأخرى، ولكن رغم جهودها الدؤوبة وجدت والدها يتأملها باكيًا بحرقةٍ.

سألته في قلق:

"ما الأمر يا أبي؟ لماذا تبكي هكذا؟"

مسح دموعه الدافئة، وابتسم متأملًا وجهها الصبوح:

"أخشى ألَّا يمهلني الموت حتى أراك بفستان الزفاف.. أخشى ألَّا أعيش حتى أشهد هذه اللحظة التي لطالما تمنَّيت حضورها".

قالت سجى محاولة إخفاء اضطرابها:

"ما هذا الذي تقوله يا أبي؟ بالتأكيد ستراني بالفستان الأبيض، ستكون مَن يسلِّمني لشاهر، ستحضر زفافي الذي سيغدو رائعًا بوجودك إلى جواري".

قال إذ خالج البكاء كلامه:
"آمل ذلك يا ابنتي.. آمل ذلك، وأرجوه من كل قلبي".
كظمت سجى دموعها، وبذلت في ذلك جهدًا كبيرًا وقالت:
"ما رأيك بأنْ نعود إلى الداخل الآن؟ سرعان ما ستؤول الشمس إلى المغيب، وسيصير الجو باردًا.. آخر ما أريده هو أنْ تصاب بالرشاح".
حاولت ممازحته قائلة:
"أم أنك تريد أنْ ينتهي بك المطاف بأنف أحمر مسدود؟"
هزَّ رأسه نافيًا، وتكلَّف ابتسامة باهتة، دلفا إلى الداخل وقامت سجى بتحميمه بالماء الدافئ، وبدَّلت ثيابه ثم أعادته إلى الفراش ليرتاح.
ذهبت بعدها لتعد له مشروبًا ساخنًا يحتسيه إلا أنها فوجئت بصوت سعاله الذي بلغها، وأثار الفزع في نفسها، تركت ما كانت بصدد فعله، وهرعت إلى الغرفة لتمكث إلى جواره، وتضرب ظهره بكفها من آنٍ لآخرَ إذ كاد البلغم يخنقه. جلبت قناع الأكسجين ووضعته على وجهه بغية مساعدته على التنفس، كانت أنفاسه ضحلة واهنة إذ أوشكت رئتاه على الفشل التام.
سألته:
"هل تشعر بتحسُّن؟"
أومأ برأسه متعبا ثم أزال قناع الأكسجين قائلًا:
"أخشى أنَّ نهايتي باتت وشيكة يا ابنتي".
أعادت سجى وضع القناع على وجهه، وقالت:

"لا تقل ذلك؛ فسماع هذا الكلام يزعجني كثيرًا، ستعيش أعوامًا مديدة بعد، وسترى صغاري، وتلاعبهم وتأنس بمرحهم ولعبهم حولك، لا تستسلم للمرض أرجوك!

ألست مَن قال أنها وعكة بسيطة وسرعان ما ستمضي؟! لا تترك سلاحك يا بطل؛ فالمعركة لا تزال دائرة".

ابتسم الأب، وقال:

"أخشى أنَّ سلاحي بات باردًا، وأني سأخسر المعركة بلا شكٍ"

قاطعته قائلة:

"أبي، أرجوك استرخِ الآن، ولا تسكب مزيدًا من الوقود على نيران أضرمها الفقد داخلي منذ سنواتٍ".

قامت بتغطيته بدثار ثقيل، وغادرت الغرفة لتسمح لأنَّات مطولة أنْ تغادر حنجرتها إذ آلمها الجرح الغائر، وزادته كلمات والدها إيلامًا، احتارت أترتكز إلى الحقيقة التي باح بها الطبيب منذ أشهر أم تثق بوصية أمها التي جعلت من نباتات الريحان حصن أمان لعلاقاتها.

دنت من الأصيص مجددًا، وجعلت تروي النباتات مُحدِّثة إياها:

"ستبقى علاقاتي بخيرٍ ما دمت بخير، وسيفوح عبقها الخالد مثلما يملأ عبقك الزكي المكان، أرجوك ألَّا تخذليني!"

مضت أيام انهمكت فيها سجى بالاستعداد للزفاف وتدبُّر أمور والدها المريض في الآن ذاته؛ فكانت ترعاه في جميع شؤونه، ولا ترفض له طلبًا قط، وحين انتهت حياكة فستان الزفاف، ارتدته ودخلت على والدها خشيةً ألَّا يمهله القدر ليراها يوم الزفاف.

انهمرت دموعه فرحًا، وحدَّثها قائلًا:

"ما أجملك يا سجى! ما أبهى طلتك يا حلوتي!"
ضمته إلى صدرها وشاركته ذرف الدموع.. لم يتبقَ من الوقت الذي حدده الطبيب الكثير، وتوجَّب عليهم أنْ يسرعوا بإتمام مراسم الزفاف، قاموا بإتمام الاستعدادات بوقتٍ قياسي، وشراء كل ما يلزمهم من أشياء، دبَّروا كل شيء، ولم يعد متبقيًّا سوى أنْ تُزَف العروس إلى عريسها وسط ضرب الدفوف، وأنغام الآلات الموسيقية ذات الأصوات الرنانة.

انطلق صوت الأمل عذبًا شجيًا يدندن ألحان التفاؤل في نفسها التواقة للحبور، فنسيت أمر مرض والدها لوهلةٍ.. حمَّمته وألبسته بدلة جديدة، ثم مشطَّت شعره، ووضعت له عطرًا فواحًا زكيًا.
أثنت على إطلالته قائلة:
"يا لبهاء طلتك!"
ثم داعبته قائلة:
"ستفتن الفتيات على هذا النحو".
ضحك والدها إذ راق له مزاحها، وأثنى عليه قائلًا:
"أضحكتني يا سجى، سأفتقد خفة ظلك يا عزيزتي".
تجهَّمت سجى، وقالت:
"لن تفتقد شيئًا، وسأزعجك بنكاتي السخيفة وتعليقاتي الطائشة أبد الدهر.. سنبقى معًا يا أبي، ولن نفترق أبدًا إلى أنْ نشيب سويًا، ونفقد أسناننا".
ابتسم الأب في شجنٍ.. دفعت سجى الكرسي إلى الردهة، وأجلست والدها هناك ريثما تنهي ارتداء الثوب الأبيض البهي، وتضع مساحيق التجميل على وجهها لتخفي إرهاقًا بدا واضحًا في هالات

داكنة، وتجاعيد تجلَّت أسفل عينيها، ولتخفي شحوب وجهها وانطفاء لونه ورونقه، وضعت الثوب فوجدته ملائمًا تمامًا.. حمل قماشه المطرز تفاصيل بهية لا تخطئ عين روعتها، بل تسبح العيون في أدقها لأكبرها تاركة للانبهار أثرًا خلفها؛ ليكون شاهدًا على مرورها.

وما إن ارتدت ثوبها حتى باشرت وضع مساحيق التجميل، واكتسى وجهها حلة جديدة تلائم اليوم السعيد.

علت أصوات الزغاريد في مخيلتها، وتخيَّلت نفسها بينما يزفها والدها إلى عريسها ويصدح الجميع بأصوات البهجة مهللين، خالجها خاطر سلبي بخصوص والدها فنحته جانبًا، وجعلت من السعادة عنوانًا لليوم الذي ستبدأ مراسمه عما قريب، خرجت إلى الردهة فور إنهائها الاستعداد فتطلَّع إليها والدها بعينين دامعتين، وقال في تأثُّر بالغ:

"كبرت يا سجى، وحان الأوان لأزفك إلى من سيصونك من بعدي.. لا تعلمين كم انتظرت هذا اليوم، انتظرته بفارغ الصبر! وها قد غدوتِ عروسًا جميلة ذات إطلالة ساحرة".

صمت قليلًا، ومرت مسحة من الحزن بوجهه فعبس ثم قال:

"ليت الزمان أمهلني حتى أزفك بكامل عافيتي إلا أنَّ للقدر رأي آخر! يحزنني أني سأحضر زفافك على كرسي متحرك".

قالت سجى:

"ولكنك ستحضره أخيرًا يا أبي، ألم تكن تلك أمنيتك؟"

أومأ والدها برأسه، وزفر هواءً ساخنًا ليتيح لسخطه أنْ يتبخَّر مع الهواء المندفع خارجًا.

قالت سجى:
"والآن لنسرع وإلَّا سنتأخر".

ضربت الدفوف، وعزفت موسيقى الزفاف لتملأ الأثير حبورًا، ولترسم البسمات على أوجه الحاضرين، ولتجلب دموع التأثر إلى عيون بعضهم.
تقدم الأب بكرسيه المتحرك يزف ابنته إلى عريسها، سارت إلى جواره ببطء وتأنٍ.. أرادت جعل اللحظة مميزة بالنسبة له، وتمنَّت لو تحفر في ذاكرته إلى الأبد.
وقف شاهر مترقِّبًا ينتظر وصول عروسه، وحين وصلا أخيرًا عانق شاهر والد سجى عناقًا مطولًا، يغشاه التأثُّر، ثم تناول يد عروسه مع انطلاق الزغاريد التي ملأت الأفق سعادةً، وخلدت المشهد في ذاكرة كليهما.
جرت مراسم الزفاف على أتم وجهٍ، وتحققت أمنية الأب بأنْ يرى ابنته بفستان الزفاف، فاضت مشاعر جياشة لم يشبها كدر.. عج بها الأفق ولم يلفظ أيًّا منها، بل تكفَّل باحتضان جميعها، وتولَّدت عبرات لتفشي خفقان القلوب سعادة وتأثرًا، ولتتيح المجال لمشاعر فياضة بأنْ تغادر مكامنها، وتخط آثارها على الوجوه الباسمة.
تأبطت سجى ذراع شاهر، وكأنما تعاهدا على خوض الطريق معًا بما تحمله من صعاب وآلام مبرحة، وحين انتهى الزفاف، تقدَّمت سجى نحو كرسي والدها لتدفعه إلى السيارة إذ سيمكث معهما بمنزلهم الجديد.

قال الأب معتذرًا:
"آمل ألَّا أكون عبئًا ثقيلًا عليكم.. آسف لتكبيدكم عناء الاعتناء بي".
قال شاهر:
"أرجوك ألَّا تقول ذلك يا والدي.. ستحلُّ البركة على منزلنا ما إنْ تشاركنا إياه".
ابتسم الأب في وهنٍ، كان على يقينٍ من أنَّ نهايته باتت قريبة إلا أنه لم يشأ أنْ يزعجَ العروسين باضطراره لأنْ يقطن منزلهما.
مضت أيام عرف فيها العروسان سعادة غامرة، وتبدى لهما معنى الوئام وحسن العشرة، أيقن شاهر أنه أحسن اختيار رفيقة دربه وأنيسة أيامه، ومَن ستشاطره أفراحه وأتراحه، وتربِّت على قلبه حين تنهكه الحياة، سيجدها بقربه حين تصفعه خطوب الحياة ونوازلها، ولن تبرح جواره متى احتاج إليها.
ستكتم أسراره وتصونه في غيابه، وستكون له خيرَ جليسة ومؤنسة، غشيت العروسين السكينة وتناسيا آلامًا جرَّعتهما إياها الحياة، تفتق وجدانهما عن حب أذكت شرارته أيام رائعة تشاطرا حلوها ومرها، وأنسا بوجودهما سويًا، ودبت الألفة في تعاملاتهما اليومية، وجعلت من علاقتهما نبع وئام فياض وملهم، يتدفق ماؤه ليغمر أودية طال جفافها في نفسيهما، ليكسوها الاخضرار، وتزهر طمأنينة وأمنًا.
امتلأ قلباهما رجاءً وأملًا بأنْ تحمل لهما الأيام القادمة خيرًا وفيرًا، وألَّا تزف إليهما سوى الأنباء السارة التي تثلج صدريهما.

جلس الزوجان ذات يوم يتبادلان أطراف حديث خالطه هزل ومزاح، جعلا يضحكان ملء شدقيهما، وأنسا بقربهما من بعضهما البعض.

كان والد سجى يغط في النوم إلا أنه استيقظ فجأة مُطلِقًا صيحة ألم مدوية، هرعت سجى إلى والدها ورافقها شاهر، وجداه يتلوَّى في فراشه من فرط الألم الذي انتابه، أسرعت سجى لتجلب المسكِّن الذي وصفه الطبيب، وأعطته لوالدها الذي حاول كظم صراخه، واكتفى بتأوُّهات متفرقة، كادت روحه تفيض بينما يشهق ويزفر مُطلِقًا حشرجة مسموعة.

انتاب الذعر سجى، وجعلت تنادي والدها بينما يتقلَّب في سكرته تلك لتتأكد من أنه لا يزال معهم، أخذ يفقد وعيه ويستعيده مرارًا، وقرر الزوجان استدعاء الطبيب إذ أدركا خطورة الأمر.

قال الأب في خضم حشرجته:

"لا تخافي يا ابنتي.. أنا بخير".

قالت سجى وقد استبد بها قلقٌ عارم:

"لست بخير يا أبي إلا أنك ستكون كذلك.. قريبًا سيحضر الطبيب، وسيفحصك ويعطيك الدواء المناسب".

قال الأب:

"لا جدوى من حضور الطبيب يا ابنتي.. أعلم أنَّ نهايتي قد حانت".

صرخت سجى:

"لا تقل ذلك! سبق وأخبرتك أنك مَن سيحمل أحفادك، وسيضجرك لهوهم المستمر.. سيتحلقون حولك، ويمتطون

ظهرك، وستروي لهم الحكايات المُسليَّة، لن ترحل قبل أنْ تراهم، فاطمئن".

ابتسم الأب في أسى.. وما هي إلا دقائق حتى حضر الطبيب ودلف إلى الغرفة حيث يرقد والد سجى، تحسَّس نبضه وفحصه سريعًا، ثم استدعى شاهر وسجى إلى خارج الغرفة وأخبرهما:

"إنه يحتضر، ليس ثمة ما يمكنني فعله".

قالت سجى فزعة وقد روعتها الصدمة، وأنكرت حقيقة احتضاره جملة وتفصيلًا:

"وما العمل الآن؟!"

قال الطبيب:

"ابقيا إلى جواره؛ فهو بحاجتكما الآن، لن ينقذه دواء من مصيره المحتم، فالزما جواره ولا تتركاه ليصارع السكرات وحيدًا".

تبادل شاهر وسجى النظرات الحائرة.. قال الطبيب:

"لا داعي لوجودي هنا الآن.. عن إذنكما".

رحل الطبيب وضم شاهر سجى إلى صدره، بينما انهارت المسكينة، وأطلق وجدانها عبارات الجزع متشحة برداء الأسى، وتغذيِّها دفقات من دموع ساخنة، وحين هدأت، دخلا الغرفة من جديد ليجدا والدها وقد علَّق بصره بالسقف وجعل ينازع، طالعهما بنظرات شاخصةٍ، ووجَّه حديثه لشاهر قائلًا:

"عدني بأنْ تهتم بابنتي.. إنها أمانة استودعتك إياها، فلا تفرِّط بها".

أومأ شاهر برأسه متأثرًا، وقال بين دموعه:

"أعدك.. لا تقلق حيالها مطلقًا".

ثم التفت الأب لسجى الغارقة في بكائها وقال:
"لا تخافي يا ابنتي ولا تجزعي، ستكونين بخير"
قالت تستجديه ليبقى:
"لا ترحل يا أبي! ابقَ معي، لا تتركني أرجوك!"
شخص بصره، وتعلَّق بالسقف مجددًا، بينما قال بصوتٍ بالكاد يُسمَع:
" وداعًا يا عزيزتي.. وداعًا".
فاضت روحه وسط ذهول ابنته التي عجز عقلها عن استيعاب ما جرى، وجعلت تنادي والدها بينما يعتصرها الألم.
ضمَّها شاهر إلى صدره، فتملَّصت، واحتضنت جثة والدها مُطلِقة صيحات ألمٍ رنانة امتزجت ببكائها المرير.
تبدَّلت الأيام الهانئة، وخالطها حزنٌ يشج الفؤاد وبؤس يشطره نصفين، لم تكن سجى لتصدِّق ما جرى إلا باتباعها لجنازة والدها، ووقوفها عند شاهد قبره برفقة زوجها، الذي جعل وصية أبيها نصب عينيه، فعزم على الاعتناء بها كما يجب؛ فكان كجلمود صلب اتكأت إليه في لحظات ضعفها، ووهبها صدرًا حانيًا لتأوي إليه متى رغبت بإطلاق العنان لمشاعرها.
ساءت حالة سجى، فزهدت الطعام جملة وتفصيلًا، فأخذ شاهر يلح عليها إلحاحا مطولًا لتتناول بعضه بصعوبةٍ بالغة.
اضطلع بمهام المنزل من طهي وتنظيف وأعرض عن لومها على بقائها في فراشها طيلة الليل والنهار، جعل يطعمها بيده، ويحمِّمها إنْ استدعى الأمر، ويساعدها على تبديل ثيابها، ويغسل ما اتسخ منها.

تدهورت حالتها، وذات مرة طلب إليها زوجها أنْ تنفض غبار الحزن واليأس عن نفسها، وأنْ تتابع حياتها كما سبق لها أنْ فعلت أثناء حياة والديها.

أثارت عبارته حفيظتها، واتهمته بأنه لا يشعر بما تشعر، ظنته يجد في العناية بها عبئًا غير مُحتمَل، وقالت باكية:

"إنْ وجدت في اعتنائك بي عبئًا يثقل كاهلك، فدعك من وصية أبي، واتركني لألقى حتفي على ذات السرير الذي مات عليه".

انفجرت في نحيبٍ مستمر، فجعل شاهر يهدئ من روعها، ويطيِّب خاطرها بكلمات المواساة إلى أنْ هدأت، واستسلمت للنوم.

أهملت سجى أثناء وعكتها نباتات الريحان، فلم تعد تسقيها أو توليها اهتمامًا إلى أنْ كادت تجف وتذبل.

كان شاهر يتولى سقيها في بضع المرات، وينسى الأمر مرات أخرى، وذات يوم، نهض شاهر من نومه ليجد سجى وقد أفاقت باكرًا، وأمسكت أصيص الرياحين بكلتي يديها، وكادت ترميه أرضًا بغية تحطيمه، وما إنْ لوحت به في الهواء حتى فطن شاهر إلى نيتها المبيَّتة، وانتزع الأصيص في غفلة منها، وأعاده إلى مكانه. ظنت سجى بوصية أمها الظنون إذ لم يفلح اعتناؤها بتلك النباتات في الحفاظ على علاقتها بوالدها وفارق الحياة رغم كل شيء، اعتقدت اعتقادًا لا يخالطه شك أن وصية أمها ليست سوى ضرب من خيال وشعرت بالغضب إزاء الأصيص، فكادت تحطمه في نوبة غضبها تلك.، أدرك شاهر أنَّ ندمًا مهولًا سيلاحقها إن هي حطمت أصيص أمها فتدخل لمنع الكارثة. هتف بها:

"ماذا تفعلين؟!"

صرخت منزعجة:
"لا شأن لكَ!".
وعادت إلى الغرفة تزدرد ما بلغ حلقها من عبرات مالحة لم تبلغ ملوحتها ملوحة بحر أحزانها الشاسع والمفتقر لشتى أشكال الحياة، جعلت تجز على أسنانها، واحمر وجهها إذ تصاعد غضبها باضطراد، وأخيرًا حملت زهرية كانت بالغرفة، وقذفت بها تجاه المرآة فتحطَّم كلاهما، هرع شاهر إلى الغرفة إثر سماعه صوت التحطم ليجد سجى جاثية على الأرض بين الحطام المبعثر تلهث بعنف.
هتف قلقًا:
"هل أنتِ بخير؟"
لم تجبه وإنما طالعته بنظرات لائمة.. أما هو فجثا على ركبتيه يجمع الحطام، وعزاؤه أنه أنقذ أصيص الرياحين.
وفي اليوم التالي، نهضت سجى باكرًا، وارتدت ثيابها عازمة على الذهاب لعملها الذي لم تواظب عليه منذ اكتشفت مرض والدها.
استيقظ شاهر، وقال مخاطبًا إياها:
"أراك مبكرة اليوم".
قالت:
"أجل، فسأصاحبك إلى العمل".
تهلل وجه شاهر وقال:
"يا له من أمر رائع!"
لم تعبأ بثنائه على قرارها، وقالت في برود:
"أسرع كي لا نتأخر".

وحين وصلا إلى العمل، قصدت سجى مكتبها لتجده في حال من الفوضى العارمة، وجدت أوراقًا مطوية ومكرمشة ملقاة في كل اتجاه، كما وجدت بقعًا بنية على المكتب من أثر القهوة ربما، ووجدت غبارًا يغطي الأسطح وكأنما لم يعن أحد بتنظيفها لأيام، كانت على يقين من أنها لم تترك المكتب هكذا، لا بُدَّ أن أحدًا استعمل مكتبها وأدواتها.

آلمها ألَّا تجد مكانها شاغرًا، إلا أنها لم تستطع إلقاء اللوم على أحدهم؛ فقد تغيَّبت لأشهر وربما اضطر مديرها لاستبدالها.

جعلت ترتب المكتب، وتمسح بقع القهوة، وتميط الغبار عن الأسطح؛ علها تستعيد الغرفة التي عرفتها طيلة سنوات عملها المنصرمة.

ألقت ببعض الأوراق المبعثرة في سلة النفايات ورتبت البعض الآخر في أكوام لتنظر فيما ستفعل بها لاحقًا، وبينما انهمكت في ترتيب الغرفة، طرقت وئام الباب فهتفت سجى:

"تفضَّل".

دخلت وئام، وعانقت سجى بحرارةٍ إلا أن سجى لم تبادلها العناق ذاته، بل أبقت يديها إلى جوارها وكأنما لا تعني لها مشاعر صديقتها الجياشة شيئًا أبداً. قالت وئام:

"آسفة لما حدث".

أومأت سجى برأسها وقد جف نبع مشاعرها الصادقة، وحل محلها تبلُّد شديد، وكأنما أحكمت إغلاق وعاء مشاعرها، فلم يعد قابلًا للفتح.

انتبهت وئام إلى جفاء صديقتها إلا أنها عذرتها ولم تشأ لفت انتباهها له.

جاءت زميلتان أخريان إلى الغرفة، وألقيا كلمات التعزية والمودة الخالصة، فلم تلقَ كلماتهما صدى لدى سجى التي أوصدت أبواب قلبها بإحكام وكأنما لا تريد للمشاعر أنْ تزوره أو تحدث اضطرابًا بسطح بركة المشاعر التي وجدت في الحفاظ على ركودها منجاة، وفي إلقاء الأحجار لتخرب هدوءها مهلكة وسمًا ناقعًا.

تخطى الأمر هدوءها المبالغ به إلى تذمر وتأفُّف من مكوث زميلاتها إلى جوارها، جعلت زميلاتها يتبادلن نظرات ذات مغزى إذ شعرن بأن وجودهن غير مُرحَّب به.

سألتها وئام:

"هل يضايقك وجودنا؟"

نكصت سجى رأسها، وادعت الانشغال بالتفكير العميق، فطنت وئام إلى ما يعنيه ذلك إلا أنها لم تشأ ترك سجى بمفردها لتصارع بحر أفكارها الهوجاء. سألتها مغيرة دفة الموضوع:

"أتريدين تناول الفطور معنا؟"

تصاعد غضب سجى، وصرخت بها:

"لست بحاجةٍ لتناول الفطور معكم، كما لست بحاجة لشفقتكم المختلقة واهتمامكم الزائف".

بهتت وئام، وصمتت لوهلة بينما يزدرد عقلها وجبة دسمة أطعمها إياه حديث سجى القاسِي، ثم أفاقت من صدمتها، وقالت:

"لسنا ندعي الاهتمام بك يا سجى".

صرخت سجى:

"بل تفعلون، والشفقة المصطنعة في أعينكم هي خير دليل، نظراتكم كالسيف تشطر وجداني نصفين، وكلماتكم المنمقة تثير اشمئزازي".

أومأت وئام برأسها تفهُّما وقد ازدادت الوجبة دسامةً، وكادت تصيب دماغها بالتخمة، بات متخمًا بكلمات قاسية دخلت إليه عنوة، وتسلَّقت أسواره دونما استئذان. قالت وئام:

"أرى أنه من الأفضل لكِ أنْ أتركك وشأنك لبعض لوقت؛ فأنت لا تبدين بحالةٍ جيدة".

عاودت سجى الصراخ:

"هل أبدو لك مجنونةً مثلا أذرو كلمات بلا معنى في كل اتجاه؟"

استدركت وئام:

"لم أقل ذلك وإنما.."

قاطعتها سجى:

"بل يصب فحوى كلامك في وعاء يحمل هذا المعنى!"

تنهَّدت وئام، وقالت:

"سأكون بمكتبي متى أردتِ شيئًا".

تأفَّفت سجى ضجرًا، وغمغمت:

"لست أريد شيئا؛ فأنا بخير حال".

غادرت وئام الغرفة، وتبعتها زميلتاها، وقد فجعتا بما قالته سجى، وباغتهما جفاؤها المفاجئ.

نزعت سجى قناعها فور خروجهن، واستسلمت لنوبة بكاء مرير، جمحت مشاعرها المضطربة، وانطلقت كما جواد يذرع حلبة

السباق جيئة وذهابًا بسرعة هائلة تفوق ما اعتاد على بلوغه من سرعة.
أضرم احتكاك حوافره بتراب الحلبة نارًا تصاعدت ألسنتها لتلتهم السور، ولتتعداه إلى حلبة مجاورة، أجهزت أحزانها على حنجرتها حتى كادت تموت اختناقا.. استدعى اضطرابها أشكال الألم من مظانها، فطفت إلى السطح لتذيقها عذابًا وويلات تفوق ما تكبدته في السنين الماضية.
طرق أحدهم الباب فمسحت دموعها سريعًا، وأتاها صوته يقول: "سجى، المدير يريدك في مكتبه".
هوى قلبها بين أضلعها، وانتابها ذعر شديد، لم تخفت ذكرى لقائه السابق بها حتى اللحظة الحالية، واستيقظت الذكرى من رقادها لتدق نواقيس الخطر.
نهضت سجى من مكانها، وتقدَّمت تجر قدميها نحو مكتب المدير بينما يرفرف قلبها وجلًا، راجعت نفسها مرارا وتمنَّت لو تستطيع التراجع والعودة من حيث أتت إلا أن الخيار لم يكن مطروحًا.
طرقت الباب ودلفت إلى الداخل فور سماعها صوت هتافه: "تفضل".
وجدته خلف مكتبه وقد عقد ذراعيه عليه، وبدا متجهمًا عابسًا، وكأنما انتظر وصولها لأدهر ما أضجره، وأصابه بالملل والغضب الشديدين، بدا لها وكأنه سينفجر صارخًا بوجهها إذ لم تبدِ التزامًا بعملها في الآونة الأخيرة.
دعاها للجلوس، وبدأ حديثه قائلًا:
"يؤسفني ما حدث لوالدك، ويؤسفني كذلك إهمالك لمهام عملك في الفترة الأخيرة".

حاولت تبرير موقفها إلا أنه لم يذر لها فرصة للحديث بل تابع:
"أقدِّر الظروف الصعبة التي مررت بها، ولكن يجب عليَّ أنْ أعلمك بأن هذه فرصتك الأخيرة لتعودي لسابق عهدك؛ كي لا تخسري الترقية التي وعدتك بها".

قالت سجى:
"مفهوم سيدي".
قال متوعدًا:
"تذكري، إن لم يرق لي عملك بالقدر الكافي، فانسي أمر الترقية تمامًا، يجدر بك أنْ تظهري استحقاقًا لها وإلا فعدي وعودي كأن لم يكن".
أومأت سجى برأسها في إذعان، وقالت:
"أمرك سيدي".
ابتسم المدير في دهاء، واخترقها بنظراته الحادة المتفحصة التي بالغت في التدقيق في تفاصيلها من رأسها إلى أخمص قدميها، شعرت سجى بالإحراج وودت لو تبتلعها الأرض فلا يعود لها وجود.
قال أخيرًا:
"ستبقى الترقية مرهونة بامتثالك لأوامري، فتذكري هذا جيدًا".

وأخيرًا سمح لها بالذهاب قائلًا:
"يمكنك الذهاب الآن".
غادرت سجى مكتبه، وقد وجد وعيده سبيله إلى نفسها، واستدعى مخاوفها من فقدان عملها لتضطرم مُخلِّفة أمواجًا من قلق مقيت،

جعلت تمشط ساحات عقلها بحثًا عما يمكن أن يفسر سلوكه الغريب وعن مرادف لكلمة أوامره التي عكف على ترديدها.

تساءلت: أي أوامر تلك التي يريدها أنْ تمتثل لها؟ لم تشعر بالارتياح وخالجها شعور مزعج بالارتياب، عادت إلى مكتبها وحدقت بشاشة الحاسوب في شرود. دخلت وئام وسألتها:

"ما الخطب؟ لماذا أرادك المدير؟"

قالت سجى بنبرة منكسرة:

"توعدني بخسارة الترقية إن لم أعد لسابق عهدي".

غمغمت وئام:

"يا له من وغد!"

تنهَّدت سجى في أسى فتابعت وئام:

"دعك منه، ليس سوى وغد لا يلقي لظروف الناس بالًا".

قالت سجى:

"وماذا لو خسرتها؟ أنا بحاجةٍ إليها يا وئام!"

قالت وئام:

"لن تخسريها.. لم يهددك سوى لأنه يريدك أن تعملي على خير وجه، وهذا ما تفعلينه بالفعل، فلا يفتن ذلك في عضدك ولا يضيفن إلى مصابك عبئًا آخر".

أطرقت سجى، وتجمعت الدموع في مقلتيها.. تابعت وئام:

"لا تحمِّلي نفسك فوق ما تطيق، دعيها تجتاز مصابها أولًا، ولا تدعي كلمات ذلك الوغد تكدِّر صفو ذهنك، تذكري أنه ليس سوى وغد عديم الشعور".

أومأت سجى برأسها في امتنان لصديقتها التي طيَّبت خاطرها وضمدت جرحها المكشوف.
قالت وئام:
"والآن أنهي تقريرك هذا، ولنذهب لتناول المثلجات".
قالت سجى إذ وجدت في ادعاء السعادة عبئًا لن تطيق تكلفه:
"لا أود القدوم".
قالت وئام في حزم:
"ذري اكتئابك هذا، وشاركينا الاستمتاع.. أعدك بأنك ستستمتعين كثيرًا".
مر طيف ابتسامة بوجه سجى ولاح لها بريق أمل خافت، فتعلقت به ورجته أنْ يصحبها إلى سهوله الشاسعة بعيدًا عن جحيم الكآبة ووديان التعاسة المقفرة.
أنهت سجى التقرير وغادرت برفقة زميلاتها إلى متجر المثلجات، انتقت كل منهن نكهة مختلفة وجلسن يتسامرن ويتمازحن في استمتاع بالغ، أما سجى فشعرت بعزلة عنهن، سجنها حزنها بغرفة مظلمة جدرانها مصمتة عازلة للصوت، لم يجتز مرح زميلاتها جدران غرفتها الفولاذية، ولم يتسلل إلى نفسها تباعًا. استهجنت وئام عدم انتقال عدوى التهكم والمزاح إلى سجى الجالسة قربهن في صمتٍ مطبق لا تكاد تتفوه بحرف، تتكلف ابتسامة مجاملة من آنٍ لآخر حين توجه إحداهن لها كلامًا.. تكتفي بالابتسامة ولا تحير جوابًا. تصدت جدران الغرفة لكل ضروب الاستمتاع، وتناولت سجى المثلجات الخاصة بها سريعًا دونما تذوق يُذكَر.

انصهرت المثلجات الباردة في فمها، ولم تلقِ بالًا لألم أسنانها الذي تلا استعجالها في تناولها، ولَّد انفصالها التام ذاك مشاعر قاتمة في نفسها المرهفة، وأيقظ اختلافها عن رفيقاتها مشاعر حزن ووحدة قاتلة لدرجة أنها تمنَّت لو لم تصحبهن إلى متجر المثلجات، ودت لو بقيت حبيسة قوقعتها التي ألفت جدرانها فذاك خير من غرفة الفولاذ تلك، شعرت وكأنما ستقضي نحبها منفردة ولن ينتبه أحد إلى مفارقتها الحياة.. لن يدركوا حقيقة وفاتها سوى حين تفوح رائحة تعفُّن جثتها النافقة، حذت الدموع حذوها، واحتبست في مقلتيها اللتين شابهتا جدران الغرفة فلم تتيحا لها رفاهية البكاء، بقيت معاناتها الجمة طي الكتمان، ولم تلحظ رفيقاتها حزنها المطبق، توسَّلت إلى عبراتها أنْ تنهمر عل أحدًا يفطن إلى ألمها إلا أن العبرات أبت الانهمار، وطال إباؤها، واستمر حتى قررت صديقاتها مغادرة المكان، ودعتهن وقصدت منزلها.. وما إنْ دخلت حتى وجدت شاهر بانتظارها في الردهة، جلست إلى جواره ولزم كلاهما الصمت لبرهة.. ثم سألها شاهر:

"هل قضيت وقتًا ممتعًا؟"

لم تجب، وإنما أطرقت في صمتٍ. سألها شاهر مجددًا محاولًا دفعها للحديث:

"أي نكهة من المثلجات تناولت؟"

قالت في صوت يغالب البكاء:

"لا أذكر".

قال شاهر مازحًا:

"كيف لا تذكرين؟"

بحثت في ذاكرتها عن أشلاء ذكرى نكهة المثلجات، فعجزت عن تذكر اسمها واسترجاع ما حملته من متعة؛ فهي لم تعرف الاستمتاع بالأساس.. لم تجد سوى ذكرى الوحشة التي شعرت بها والاغتراب الذي غمرها أثناء اجترارها لآلام مربكة وقاسية بين صديقاتها اللاتي لزمن استمتاعهن ومزاحهن المطول، فلم ينتبهن لشرودها في فيافي البؤس قارسة الظروف،

تلألأت الدموع في مقلتيها ولاحظها شاهر فقال:

"ماذا جرى؟"

أجابت عنها دموعها إذ انهمرت بغزارة أخيرًا وغرقت سجى في نحيب مطول، ضمها شاهر إلى صدره بينما يعلو صدرها ويهبط مُحدِثا أزيزًا، وبينما تتصاعد أناتها وتخفت، استحال بكاؤها نشيجًا مريرًا، وصدحت بشتى ما أكنته نفسها من مشاعر موبقة.. جعل شاهر يربِّت على ظهرها محاولًا التهدئة من روعها ويقول:

"لا عليكِ يا سجى.. لا عليك".

انفطر قلبه لرؤيتها بائسة إلى هذا الحد، وودَّ لو يحمل عنها ما أثقل كاهلها من هموم كثيرة، مزق التيه رداءها الخلق الذي نسجته من اطمئنان.. تاهت بين كثبان رملية ببيداء مقفرة بالغة الاتساع، فلم تعرف خلف أي الكثبان يختبئ جليسها الأثير المدعو بالأمان.

ضلت طريقها إليه، وهامت في دروبٍ رملية لا نهاية لها، يتناهى إلى مسامعها صوت نعيق الغربان وعواء ذئاب المفازة التي تتربَّص بها أينما ذهبت.

لم تفلح مجالسة رفيقاتها في إخماد نيران الأسى التي اشتعلت داخلها، بل ضاعفت من شعورها بالعزلة والغربة، وزادت أسوار سجنها الانفرادي ارتفاعًا.

خلدت إلى النوم أخيرًا إذ أنهكها خوض غمار تلك المشاعر دونما طوق يقيِّها الغرق في بحرها متلاطم الأمواج، أيقظها شاهر برفق في اليوم التالي، وأعد لها فطورًا لذيذًا.. جلست إلى الطاولة تلقم الطعام في صمت، لم تبح بأي مما يختلج في ذهنها من أفكار مزعجة بل أبقتها سرًا، وجعلت منها أصفادًا تقيِّدها إلى قضبان غليظة تسد نوافذ سجنها التعس.

قال شاهر:

"ما رأيك بأنْ نحتسي القهوة سويا؟"

أومأت سجى برأسها في تسليم إذ لم تملك القدرة على المقاومة أو رفض مقترحه الناجم عن صفاء نية، لم تجادله، وارتدت ثيابها ثم رافقته إلى المقهى في هدوءٍ. جلسا إلى طاولة صغيرة، وقام شاهر بطلب كوبين من القهوة لكليهما، حاول استدراج سجى للحديث فقال:

"الجو لطيف اليوم، ما رأيك بأنْ نذهب للعمل سيرا على الأقدام لنستمتع بالنسيم العليل؟"

أومأت سجى برأسها في إذعان، ولم تتكلَّف مشقة الحديث، لم ييأس شاهر من جعلها تتكلَّم، فقال:

"هل زرت هذا المقهى من قبل؟"

هزَّت رأسها نفيًا فتابع:

"وكيف وجدته إذًا؟"

قدحت سجى زناد فكرها طويلًا، وجاهدت لتكوين جملة تجيب بها عن سؤاله، وأخيرًا قالت:
"لا بأس به".
انطلق شاهر يمتدح المقهى:
"إنه يقدِّم قهوة جيدة، كما أنه يصنع حلوى لذيذة.. يجب أنْ تجرِّبي الكعك الشهي الذي يصنعه".
لم يكف شاهر عن الكلام، وأعرضت سجى عن سماع ثنائه على المقهى، فشرد ذهنها في ربوع فسيحة من صنع عقلها زرعها التيه أشواكًا.
شخصت عيناها وفقدت انتباهها، وما إنْ لاحظ شاهر شرودها حتى هتف باسمها ووجَّه لها كلمات العتاب:
"سجى! لماذا لا تعيرين كلامي انتباهًا؟ أتجدينه مملًا إلى هذه الدرجة؟"
أفاقت سجى من شرودها، واعتذرت خجلة:
"أنا آسفة.. لم أقصد".
تأفَّف شاهر وبدا عليه الانزعاج.. جلب النادل كوبي القهوة واحتساهما الاثنان في صمتٍ، حاولت سجى إدارة دفة الحديث إلا أنها لم تجد الكلمات، عقد الحزن لسانها، وخيَّم عليهما صمت ثقيل كما غمامة ناءت بحملها من قطرات مياه كثر، أظلتهم ولم تبرح محلها إلى أنْ حان أوان المغادرة إلى العمل، نهض شاهر قائلًا:
"لنذهب كي لا نتأخر".
نهضت سجى تجر ثقلًا كبل إلى قدميها.. لم يتفوه أحدهما بكلمة طيلة الطريق؛ فلزم شاهر ضيقه وغضبه، ولزمت سجى شرودها

ووهنها، وحين بلغا الشركة، انطلق كل إلى مكتبه ليباشر مهام وظيفته.

أطلق شاهر سخطه في زفيره الحار، وعض شفتيه في ضيق.. عكر تجاهل سجى لحديثه مزاجه، وكدَّر صفاء نهاره، فاتشحت سماء وجدانه بغيوم التعاسة القاتمة، أما سجى فلاحقت شظايا عالم تعرفه فرارًا من محيطها الذي وجدته مجهولًا مثيرًا للهلع.

حاولت جمع تفاصيل ما يحمل لها ذكريات مألوفة من الأشياء الموجودة حولها إلا أنها كانت قد اكتست ثوبًا غريبًا، حاولت إقناع عقلها المرتبك بأن تلك الأشياء لا تزال على حالها، وأنها لا تزال تضمن لها الأمان والأنس معًا، لم يقتنع عقلها بتلميحاتها الواهية إلى أن العالم لم يختلف كثيرًا بل ظل معتنقًا اعتقاده الراسخ بأن محيطها تبدَّل، فلم يعد كما كان، وأن خطرًا يتجهمها مختبئًا خلف صخرة ما ليباغتها فور غفلتها عنه. وجدت مباشرة العمل مهمة عسيرة في خضم اضطرابها، وفي ظل الظروف التي نالت من شعورها بالأمان، واستبدلته خوفًا ذا بأس شديد، فتحت الملف الذي كانت بصدد العمل عليه بالأمس، ولم تكف أفكارها ومخاوفها عن إزعاجها وعن صب أرطال من الظنون السيئة والشكوك شديدة الإلحاح في أذنيها اللتين سئمتا سماع معزوفات القلق الناجمة عن اهتزاز أوتار قيثارة صدئة، لم يفتر قلقها، ولم يغيِّر وجهته بل سكن دماغها طيلة النهار فعج الأخير بجحافل أفكار مضجرة ومزعجة، توسل دماغها إلى القلق أنْ يرحم ضعفه وأنْ يذره ليواصل عمله إلا أن المحيط غدا أكثر غرابة، وغدت المثيرات أكثر إزعاجًا. دفنت وجهها بين كفيها، وانتظرت أنْ يحل هدوء رزين ضيفًا على وجدانها القلق، تصاعد خوفها، واندلعت شرارته

لتضطرب أمعاؤها، وترتجف أوصالها، وتتسارع أنفاسها وينهمر العرق الغزير من جبينها، ويضرب قلبها صدرها بقوة ملحوظة، فتلاحظ تسارع نبضاته، وكأنما استحال فرسًا جامحًا يركض بأقصى سرعة لديه، أبقت عينيها مغمضتين إذ كانت المثيرات تؤجج خوفها وتزيده سعيرًا.. شعرت وكأنما ستلفظ أنفاسها في خضم اضطرابها الهائل إلا أن حدة أعراضها جعلت تخفت شيئًا فشيئًا، وسرعان ما استعاد واقعها ثوبه المألوف، واستعادت نفسها حضورها في اللحظة الراهنة. استعادت سيطرتها على جسدها الذي ارتأت أنه دبر مكيدة بالاتفاق مع خوفها ليوقعاها في شراك أفكارها المظلمة التي باتت تزأر في الخلفية طيلة النوبة القاسية، أعادت النظر إلى الملف محاولة استجماع أفكارها التي شردت بعيدًا، وتناثرت فأفلحت في ذلك إلى حد كبير. نجحت في لملمة شتات نفسها وترتيب فوضى المشاعر التي غمرت المكان بعدما تمكَّنت من عقلها واجتاحت خلاياه، طردت بقايا الخوف شر طردة، وأولت انتباهها للتقرير حتى أتمته.

مضى أسبوع على معاودة سجى عملها، بذلت فيه قصارى جهدها لتستعيد قدرتها على إنجاز ما يوكل إليها من مهام.. نجحت في ذلك أيما نجاح وأبهرت زملاءها بقدرتها المذهلة على تجاوز صعاب اعترضت طريقها ولا زالت تكشر عن أنيابها بوجهها من آنٍ لآخر.

وذات يوم طرق أحدهم بابها وقال:

"سجى، المدير يريد التحدث إليك".

هوى قلبها بين ضلوعها مجددًا، وقامت بانتشاله لكي لا تفقده إلى قيعان معتمة، تعجَّبت من استدعائه إياها بشكل متكرر، فحدَّثت نفسها قائلة:

"ترى ماذا يريد؟"

دخلت إلى مكتبه لتجده جالسًا خلف المكتب تعلو وجهه ابتسامة ماكرة، فتساءلت عما يخفي خلف ابتسامته النكراء، شعرت بالخوف يغزو كيانها، وباشرت يداها الارتجاف فعقدتهما خلف ظهرها، وحاولت تمالك نفسها لتبدو قوية الشكيمة، لاحظ المدير ارتباكها، وقال محافظًا على ابتسامته المريبة:

"ما بك ترتجفين هكذا؟ هل بات أمر استدعائك إلى مكتبي يثير فزعك؟"

هزت سجى رأسها نافية، وقالت:

"لا سيدي، أنا بخير وليس ثمة ما يزعجني على الإطلاق".

كظم ضحكة كادت تتفجر رغمًا عنه، وقال متهكما:

"ليتك تنصتين لارتجاف كلماتك واضطراب أحرفها التي بعثرها القلق قبل أنْ تزعمي أنْ ليس ثمة ما يزعجك!"

شعرت سجى بكونها عارية سوى من ثوب رقيق لا يستر خوفها واضطرابها العارم ما ضايقها، وأربكها كثيرًا كما أزعجها تفنُّن المدير في كشف عيوبها ومواطن ضعفها التي تبدت جلية من خلال الثوب الرقيق الممتلئ بالثقوب الواسعة.

تابع المدير منتشيًا بكشف عورات مخاوفها التي عجزت عن سترها:

"يضحكني اضطرابك، ويسفر عن براءة ونقاء سريرة أخاذ".

قالت سجى محاولة اختصار الحوار المربك:

"لم أفهم بعد لم استدعيتني يا سيدي".

ضحك المدير، وقال:

"يا للكِ من متعجلة! على أية حال لا بأس.. سأخبرك بالأمر، استدعيتك بخصوص الترقية التي وعدتك بها".

شعرت سجى بحرارة تغمر وجهها، وبجفاف في حلقها حتى تجاوزته بضع كلمات بالكاد:

"ما بالها؟"

أعقبت سؤالها بحشرجة، وازدردت ريقها بصعوبةٍ.

قال المدير وقد راق له ارتباكها الطفولي:

"لقد أبهرني عملك في الأسبوع الماضي، ويبدو لي أنك استعدت أداءك المشرف رغم كل شيء، لا أخفيك سرًّا.. لقد راهنت على فشلك إلا أنك أثبتت جدارتك يا سجى، لذا فأنت تستحقين الترقية بكل تأكيد، لا يساورني شك في أنك أهل لثقتي، وسأفكر ألف مرة قبل أنْ أراهن على فشلك بعد اليوم".

تهلَّل وجه سجى، وقالت:

"أشكرك يا سيدي، وأعدك بألَّا أخيِّب ظنك".

"هذا رجائي يا سجي، وأعلم أنك لن تخلفي وعدك لي".

صمت قليلًا ثم تابع:

"ولكن ثمة شيء واحد بعد.. طلب صغير آمل أنْ تلبيه لي".

قالت سجى والعالم لا يكاد يسعها إذ بلغت سعادتها ارتفاع ناطحات السحاب:

"تفضَّل سيدي.. أنا في خدمتك".

ابتسم في خبث وقال:
"أودُّ دعوتك على العشاء بمطعم قريب، سنناقش أمورًا تخص العمل، ونتناول العشاء سويًّا على أنغام هادئة، إنهم يقدمون صنوف مأكولات شهية ستروق لك كثيرًا.. فما رأيك؟"
قالت سجى بنبرة شابها انزعاج وارتباك باد:
"لا أظنني أستطيع تلبية رغبتك يا سيدي.. آسفة لتخييب ظنك".
قاطعها قائلًا:
"على رسلك يا متسرعة! إنه محض عشاء عمل لا أكثر.. ما الضير في أنْ نجلس سويًّا بمنأى عن أعين زملائك المقتحمة والحاقدة؟ صدقيني سنقضي وقتًا رائعًا، وننجز العمل في الآن نفسه".
صمتت سجى ولم تحر جوابا إذ غاص عرضه المغلف بثوب المكيدة في بئر مخاوفها العميق، وحمل في طياته أسئلة محيِّرة تبعث على التوتر.
تابع المدير:
"تذكري أن أمر ترقيتك مرهون بامتثالك لأوامري مما لا يترك لك خيار الرفض متاحًا".
نهض عن مكتبه، وتقدَّم نحوها قائلًا:
"فكري في الأمر، وأعدك بأنْ نقضي وقتًا ممتعًا".
ارتبكت إذ دنا منها وهمس بأذنها:
"أرجو أنْ تُبقي أمر العشاء سرًّا بيننا.. آخر ما ينقصنا هو أن تلاحقنا الشائعات والنظرات الحاقدة، أليس كذلك يا حلوتي؟"

أومأت سجى برأسها في خوف، ونظر في عينيها مباشرة، فتكلفت ابتسامة مصحوبة بإيماءة خفيفة خجلة. تناول يدها، وقبَّلها ثم قال:

"يمكنك الذهاب الآن، وسأكون بانتظار ردك.. هذا إن رغبت بأنْ تحوزي الترقية".

ومجددًا لم تستطع دفع اقترابه المربك وإلزامه حدوده ما راق له وأغراه بفعل المزيد؛ إذ وجدها فريسة هينة سيغدو التهامها سهلًا.

غادرت سجى غرفة مكتبه بينما تموج الأرض تحت قدميها، وتكاد جدران الشركة تطبق عليها، ويكاد السقف ينهار فيئدها في مكانها ويهيل عليها الركام، لم تدر ما تفعل إذ بات حلمها بالترقية ووفاؤها لزوجها ندين يصارع بعضهما الآخر، توجب عليها تغليب أحدهما رغم الأهمية التي يحظى بها كلاهما لديها، لم تستطع المفاضلة بين الندَّين، وجعلت تراقب حلبة المصارعة في انتظار أنْ يؤول النزال إلى نتيجة تحسمه.

تساءلت هل تتبع حلمها الذي ارتقبت طويلًا، وبذلت مجهودًا هائلًا لبلوغه، وتخاطر بحياتها الزوجية أم تخسر الترقية وتفر بجلدها من بين براثن ذلك الثعلب الماكر الذي سيفسد علاقتها بزوجها دونما شك؟ اتخذت قرارها أخيرًا، وابتلعت الطعم الذي قذف به الصياد تجاهها؛ ستقتفي آثار حلمها الذي يستجديها لتحققه، وستبقي الأمر سرًّا على أمل ألَّا يفطن زوجها لأمر دعوة العشاء، طمأنت نفسها إلى أن عشاء واحدًا لن يتكفل بتقويض بنيان زواجها، وأنها ستفلح في إخفاء الأمر في نهاية المطاف.

هاتفت زوجها وادَّعت أنها ستذهب إلى منزل زميلتها "رغد" عقب انتهاء الدوام، وطلبت منه ألَّا ينتظرها، صدَّقها شاهر، ورجا لها

وقتًا ممتعًا، وأعرب عن سعادته لعودتها للقاء زميلاتها خارج الشركة، فقال فرحًا:

"تسرني عودتك لسابق عهدك يا سجى، وآمل أنْ يدوم الأمر".

انفرجت أساريرها وقالت:

"وأنا كذلك".

أقفلت الخط وقد آسفها خداعها له إذ لم يسبق لها أن كذبت عليه بمثل هذه الطريقة الوقحة.

وجدت سجى نفسها مضطرة لخوض طريق تجهل عن عواقبها كل شيء، خشيت أنها تسلك دربًا وعرًا قد تفضي إلى هلاك محتم إلا أن بريق الترقية الزائف فتنها إلى درجة عجزت معها عن التفكير السليم، سحرها تشبُّثها الشديد بالترقية المزعومة، واقتادها الغول كما المجذوبة إلى غابة مظلمة خطرة، تسكنها سباع جائعة وضباع ماكرة تستعد لتمزيقها إربًا، جعلت تطمئن نفسها:

"إنه محض عشاء عمل لا أكثر".

لم ينطل خداعها لنفسها على عقلها شديد الذكاء، وأيقن بحدسه أن خطبًا ما على وشك الحصول، وأن ثمة مكيدة بيتت بليل تختبئ خلف ذلك اللطف المصطنع وتلك الكلمات الرقيقة، وفي نهاية الدوام، وقفت عند باب مكتب المدير، وأجهزت على هواجس تتوسل إليها أن تتراجع، فأزهقت أرواحها، وتمسكت بقرارها الأخرق المندفع.. زفرت هواجسها في تنهيدة مطولة، ثم طرقت الباب، وولجت المكتب ما إن أذن لها بالدخول.. قالت:

"أنا مستعدة".

ابتسم المدير منتشيًا إذ وقعت الفريسة في شباكه أخيرًا وقال:
"فلنذهب إذًا".
اصطحبها إلى سيارته الخاصة، وجعلت تتلفت حولها؛ خشيةً أنْ يراهما أحد ولا سيما زوجها، قال حين لاحظ قلقها:
"لا تقلقي أبدًا.. ستسير الأمور على خير ما يرام".
قاد المدير السيارة إلى المطعم، وترجل منها ثم فتح الباب لسجى لتنزل بدورها، اقتادها إلى الداخل بينما يخالجها التردد، وجلسا إلى إحدى الطاولات ثم جعلا يقرآن قائمة الطعام، وأخيرًا قال المدير:
"ما رأيك بأن أنتقي لك طبقًا مميزًا سينال إعجابك بلا شك؟"
لم يدع لها فرصة للإجابة، وإنما طلب النادل واختار الطلبين دون سماع رأيها، أزعجها الأمر إلا أنها قررت مجاراته حتى النهاية إذ لم يعنِ لها انتقاء طبق تشتهيه الكثير، بل أرادت أن يمر العشاء دون وقوع مشكلات، تطرقا إلى أمور العمل بداية؛ فناقشا مواضيع تخص سيره، والمكاسب التي حققها، والخسائر التي تكبدها في الفترة الماضية، وما يمكن أنْ يبدد ضجر العاملين الذين سأموا رتابة أيام العمل ووضع الشركة الحالي بين مثيلاتها من الشركات المنافسة، واستفسر عن رؤيتها لتطوير سير العمل، فأدلت بدلوها في سذاجة غافلة عما ينتظرها مما دبره ذلك الذئب.
وبعدها زار الحديث مواطن أبعد وشرد عن الغاية التي ادَّعى المدير أنه لن يجتازها؛ جعل يسألها أسئلة شخصية عن اهتماماتها وما تفضّل ثم أخذ يغوص إلى أعماق أبعد، وتطرَّق بأسئلته إلى مواطن شائكة في نفسها، لم تجد بدًّا من الإجابة عن أسئلته، وتخاذلت عن إلزامه حدوده، اعتراها توجس وعدم ارتياح، ورغبت بإنهاء

اللقاء إلا أن المدير لم يكف عن طرح أسئلته التي اقتحمت جدارًا تمكث خلفه أدق أسرارها، قامت بدك الجدار لينهار ويكشف خلجات نفسها وما يزعجها من خطوب الحياة، حدق المدير فيما تكشف من أسرار بأعين ثاقبة فاحصة، ولم تنتبه سجى إلى حديثها معه بأريحية مبالغ بها وبمغالاتها في البوح بما حجبته عن الناس طويلًا، وأخيرًا طالعت ساعتها وانتبهت إلى تأخر الوقت فقالت:

"يتوجَّب عليَّ الذهاب الآن".

قال المدير:

"لا يزال الوقت مبكرًا".

اعتذرت سجى:

"أعتذر منك.. سنكمل حديثنا لاحقًا".

همت سجى بالمغادرة فاستوقفها:

"انتظري.. سأوصلك".

قالت:

"لا داعي لذلك.. سأستقل سيارة أجرة"

قال بصوت غليظ ينضح دهاء:

"تخشين أن يفتضح أمرنا إذًا؟"

ارتبكت واحتقنت الكلمات في حلقها، أما هو فتابع في مكر:

"لا عليك، فسيعرف الجميع بعلاقتنا عما قريب".

باغتها كلامه وعقد لسانها، فلم تتفوه بحرفٍ، وإنما فرت هاربة، وأطلقت لساقيها العنان مغادرة المكان، وحين بلغت منزلها، وجدت شاهر منشغلًا بمشاهدة التلفاز، وحين انتبه إلى دخولها ابتسم وسألها:

"هل قضيتِ وقتًا ممتعًا؟"
صمتت قليلًا، ثم ارتدت عباءة الكذب وأجابت:
"أجل.. استمتعنا كثيرًا".
أحس شاهر باضطرابها، وبرجفة تخللت كلماتها فسألها:
"ما بكِ ترتجفين هكذا؟"
استدركت:
"لا شيء، أنا متعبة فحسب.. ربما أصبت بالحمى".
تحسس شاهر جبينها المتعرق وخيل له أنها محمومة بالفعل، فقال:
"اذهبي إلى السرير إذًا، وسأجلب لكِ كوب عصير بارد".
ودت لو تبكي بين ذراعيه، ودت لو تعلمه بما تخفي فينجدها من بين براثن ذاك المفترس إلا أنها أيقنت أن ذلك سيعني خسارتها الترقية إلى الأبد، أوت إلى مخدعها وقام شاهر بتدثيرها بغطاء ثقيل ثم تركها، وقصد المطبخ ليصنع لها كوب العصير، وحين جلبه لها كانت قد أسلمت نفسها لنوم عميق.. وضع العصير بقربها، واستسلم للنوم بدوره.
توالت دعوات العشاء على سجى من قِبل مديرها الماكر، الذي احترف إغواءها، وأحسن استغلال نقطة ضعفها، لم يعدم التبريرات الواهية، وهددها بإخبار زوجها بالأمر حين أعلنت أنها لن ترضخ لأوامره مجددًا، فاضطرت لإتمام المسرحية النكراء، خشيت افتضاح أمرها أمام زوجها خصوصًا وزملائها عمومًا.. خشيت في كل مرة عزمت فيها على ترك المسرحية برمتها أن ينفذ المدير وعيده، فينتهي أمر زواجها وأمر سمعتها إذ ستلطخها

فعلتها الدنيئة، هددها بأنه لن تعجزه إضافة التوابل للقاءاتهما البريئة وأنه سيزعم أن الأمر قد اتخذ منحى جديًا، وأن علاقتهما تطورت إلى ما هو أبعد من محض عشاء عمل، سألته سجى ذات مرة:

"لماذا تفعل بي ذلك؟ لماذا تكبلني بأصفادك؟ لم لا تتركني وشأني؟ ماذا صنعت لك لتعذبني على هذا النحو؟"

قال مدعيًا الهيام بها:

"لأنني أحبك يا طفلتي المدللة.. وكيف لمن وقع بأسرك أن يغادر محبسه؟ سأخلد في عذاب هيامي بك ولست أرغب بأن ينجدني أحد، أنتِ ملكي وحدي ولن يشاركني أحد غرامك الذي هويت إلى قيعانه متيمًا".

شعرت سجى بالتقزز والنفور من مغازلاته المفتعلة، وتمنت لو يصمت للأبد إلا أنه دنا منها وهمس لها:

"رباه! كم أنت جميلة يا صغيرتي!"

تنشق عطرها، وتأمل وجهها الذي ارتسمت عليه أمارات الفزع.. لم يردعه ارتباكها وكاد يقبلها عنوة إلا أنها أسرعت بمغادرة الغرفة.

أوت سجى إلى مكتبها، وأماطت عن جسدها غبار الصدمة، وحدقت بشاشة الحاسوب لتغمر نفسها بشؤون العمل، ولتغرق في بحار همومه متلاطمة الأمواج إلا أن بحاره على رحابتها لم تسع مشاعرها الجياشة واختلاجات قلبها المفطور، انهمرت دموعها بينما تحاول العمل على تقاريرها، فغامت عيناها ولم تعودا تبصران ما كتب بالتقارير، طرقت وئام باب غرفة سجى التي مسحت دموعها سريعًا، واتخذت وجهًا جامدًا خاويًا من كل شعور، كانت

ترسف في أغلال اختلقها المدير، وأوقعتها سذاجتها في حفرته التي شرع يردمها بالتراب.. نفذ التراب إلى رئتيها اللتين تداعتا ونفد منهما الهواء. التف الثعبان حول رقبتها وأخذ يخنقها استعدادًا لالتهامها وجبة سائغة.

قالت وئام:

"ما بكِ يا سجى؟ لقد تبدلت حالتك كثيرًا هذه الأيام.. ولماذا بات المدير يستدعيك بكثرة إلى مكتبه؟"

رددت سجى اسطوانة حفظتها عن ظهر قلب:

"لنناقش أمور العمل بالطبع".

قالت وئام محذِّرة إياها:

"حذاري أن يغويك ذلك الوغد يا سجى.. إنه ليس بإنسان هين، ويمتلك أساليب متلوية لينال رغبته ويصيب هدفه".

قالت سجى مدعية الغباء:

"لا أعلم عما تتحدثين، ولست أفهم لم تنعتينه بالوغد".

"بل تعلمين ذلك جيدًا".

"ليس سوى إنسان لطيف ومهذب، ولم يصدر منه تصرف يزعجني".

قالت وئام في انزعاج:

"لقد حذرتك وانتهى الأمر، سيجرك إلى شباكه ثم يحكم قبضته عليك، فلا تستطيعين الإفلات".

ازدردت سجى لعابها بصعوبة إذ شعرت بغصة في حلقها، وغادرت وئام الغرفة بعدما أيقنت أن المدير بصدد لعب لعبة جديدة، وأن

فريسته هذه المرة ستكون صديقتها المقربة.. ودت لو تنقذها من قبضته المحكمة،

تمنَّت لو تكون له بالمرصاد فتحبط خطته الخبيثة إلا أنها جهلت السبيل لذلك إذ سحرت كلماته المزخرفة صديقتها، فما عادت تبصر خبثه الذي عجنت به تراكيب جمله ذات البريق الزائف.

لم يعد إخفاء الأمر ممكنا؛ إذ رآها أحد زملائها في المرآب بينما تركب سيارة المدير، وعزم على إخبار زوجها الذي استشاط غضبًا فور سماعه بالأمر، لم يكد يصدق ما سمع بل أخذ ينكره مرارًا، ويخبر زميله أنه ربما التبس عليه الأمر، فلم تكن من رآها سوى شبيهة لسجى.

قال زميله:

"ربما.. إلا أني ارتأيت أنه من واجبي أنْ أحذِّرك".

اتصل شاهر بسجى فلم تجب، كانت قد زعمت أنها ستزور صديقتها مجددًا، وقد تذهبان للتسوق.. جعل الشك يتصاعد في نفسه، وأخذت أذرع الغضب تلتف حولها وتعصرها، فأخذت نفسه تترنح بين تصديق خيانتها له وبين تكذيبها جملة وتفصيلًا.. حدَّث نفسه:

"يا لي من ساذج! كيف لم أنتبه إلى تكرار حجتها؟ كيف صدقتها طيلة هذه المدة؟ كيف انطلت على كذبتها، وتركتها لتنعم برفقته؟ أين يكونان يا ترى؟"

ثم يعجزه التصديق فيقول:

"لا، لا يمكن أن تصنع بي هذا، لا شك أن ثمة خطأ ما.. لا يمكنها الإتيان بمثل هذا الفعل الدنيء!"

أضرمت تصرفات زوجته نيران الغيرة في نفسه، وزادها الغضب اتقادًا.. استباح غضب عارم كيانه وكاد يمزِّقه إربًا، ولم يجد ما يخمد لهيب حيرته المتأججة، فلم يدر ما يصنع وأين يمكن له أن يجدهما، تبخرت ثقته بزوجته، وحل محلها شك وتحفظ إزاء إخلاصها، غادر الشركة غاضبًا، وهام على وجهه في الطرقات لا يدري إلى أين ينبغي له أن يتجه، اتصل بسجى مرارًا إلا أنها لم تجب قط ما ضاعف حيرته وغضبه، وفي تلك الأثناء، كانت سجى جالسة في مطعم قريب تتناول طعامها في تأنٍ بينما يراقبها المدير في هيام ويعانق ملامحها بنظراته الخادشة للحياء.

قالت سجى منزعجة:

"لماذا تنظر إليَّ هكذا؟"

قال وقد اندلعت نيران شهوة مُحرَّمة داخله:

"أتأمل جمالك يا حلوتي".

قالت:

"لا تناديني بحلوتك!"

أطلق ضحكة مكتومة فسألته سجى:

"علام تضحك؟ هل قلت شيئًا مضحكا؟"

قال في استمتاع:

"تبدين رائعة حين يتملكك الغضب، وتتصاعد ألسنة نيرانه، فتجعلك فاتنة ومثيرة إلى حدٍّ كبير".

انزعجت سجى، وقالت:

"لا تروقني نبرة حديثك تلك، توقَّف من فضلك!"

ضحك مجددًا، وهتفت سجى:
"لست أفهم ما يدعو للضحك، وإنْ لم تكف عن سلوكك ذاك فسأغادر من فوري".
نهضت عن كرسيها تريد المغادرة، فاستوقفها قائلًا:
"على رسلك يا فتاة، لم ننهِ ما أتينا لأجله بعد.. حسنًا سأكف عن الضحك إن كان يثير حفيظتك.. هل ارتحت الآن؟ اجلسي من فضلك، ودعينا ننهي ما قدمنا لأجل مناقشته".
جلست سجى، وأطلقت زفرة حارة ومطولة.. ثم قال المدير ببرودٍ مستفز:
"نبرتك الحادة تفشي ارتباكك فحسب، وأودُّ لو أريحك من عناء المقاومة".
ثم أخرج علبة مخملية كانت بحوزته، وقال:
"انظري ماذا جلبت لكِ".
ناولها العلبة، ففتحتها لتجد خاتمًا ثمينًا داخلها، نظرت إليه مستفهمة وقالت:
"ما هذا؟"
فأجاب:
"إنها هدية بسيطة، وآمل أنْ تقبليها".
أغلقت العلبة، ودفعتها إليه قائلة:
"لست أقبل بهديتك، دعنا نناقش ما جئنا لمناقشته من أمور العمل، ثم دعني أرحل في هدوء".

قال متخابثًا:
"لن يفيدك العناد يا صغيرتي، ويبدو لي أنك ستتطلبين جهدًا جهيدًا لتلين شوكتك ولترضخي لرغبتي".
حدق المدير بوجهها وشبع هيامًا بأدق تفاصيله، ثم عاود الحديث:
"أنتِ ماهرة وذكاؤك استثنائي.. أعترف لك بأنك تستحقين الترقية عن جدارة، مبارك.. لقد حزت الترقية عن استحقاق".
راقب انفراج شفتيها وابتسامتها التي ظنها معبرًا إلى روحها الهشة، ظن خضوعها تذكرة بوابة عبر من خلالها إلى نفسها، واجتاز أسوارًا قصيرة تحيط قلبها فلم يضنه اجتيازها، أما هي فظنت نفسها تحوز الترقية، وخضعت لإغراءاته، ورضخت لأوامره مهما حملت من أخطار تخفت تحت عباءة الكذب الداكنة، لم تكشف الحقيقة عن وجهها العابس بوجه الفتاة التي وجدت حلمها يحلق صوب ناظريها بأجنحة بيضاء بينما تجلس بالمطعم.
قالت الفتاة منفرجة الأسارير:
"أحقًا؟"
أومأ المدير برأسه وبادلها الابتسامة ثم قال:
"الأمر يستحق الاحتفال، ولكن قبل ذلك سنعود إلى الشركة إذ نسيت ملفًا هامًا بمكتبي.. سترافقينني بالطبع".
ترددت سجى، وقالت:
"أرى أن الوقت قد تأخر وأنه يتوجَّب عليَّ.."

قاطعها قائلًا:
"لا ترفضي لي رغبتي بمشاركتك الاحتفال يا حلوتي.. لن نطيل المكث، سنجلب الملف وسنقصد أي مكان تحبينه، لا مجال للتردد، أم أنك ترغبين بإفساد اللحظة وخسران ترقيتك العزيزة؟"
هزت رأسها نافية، وقال المدير:
"والآن أريني ابتسامتك الآسرة بينما تزين وجهك".
ابتسمت مجددًا معربة عن إذعانها لرغبته.. غادر كلاهما المطعم، وركبا السيارة قاصدين الشركة، كانت الشركة قد خوت تقريبًا من الموظفين إذ تجاوز الوقت موعد انصرافهم، وسارت سجى خلف المدير تدير عينيها فيما حولها؛ خشيةً أن يلحظ أحد أنها قادمة برفقته، وحين بلغا المكتب، فتح لها مديرها الباب بابتسامة مُرحِّبة، ودعاها للدخول بإشارة من يده، وما إن دخلت حتى أوصد الباب بإحكام ثم دعاها للجلوس، جلس قبالتها، ومكث يتأملها في هيامٍ.. سألته وقد خالجها الخوف:
"أين الملف؟ أيمكنك جلبه ليتسنى لنا الذهاب؟"
قال:
"بالتأكيد سأجلبه، ولكن دعك منه الآن.. لدينا كل الوقت الذي نحتاجه لنفعل كل شيء".
"لم أفهم قصدك.."
نهض من مكانه ودنا منها، فتجمَّدت في كرسيها، وفقدت قدرتها على الحراك، وكأنما كبَّلتها المفاجأة، تيبَّس جسدها، وداعب الغول خصلات شعرها، ووضع يده على كتفها ثم همس بأذنها قائلًا:

"سأشرح لكِ الأمر يا عزيزتي.. صدقيني، لن أمل محاولة إخضاعك لرغبتي؛ فأنتِ ملكي وحدي.. أتسمعين؟! ملكي وحدي!"
ارتاعت سجى، وتسارعت أنفاسها.. لامست أنفاسه الحارة وجنتيها الحمراوين، عانقها بذراعه، وأحكم قبضته عليها لكي لا يتسنى لها الإفلات، توسَّلت إليه ليفلتها قائلة:
"اتركني أرجوك! دعني أعد من حيث أتيت.. لماذا تفعل بي ذلك؟"
لم تفلح توسُّلاتها في جعله يفلتها.. لم تجد نفعًا في ردعه، وانطلق ينهشها بلمسات خادشة غادرة، ذرفت دموعًا تستجديه ليرأف بها إلا أن الذئب افترسها كاملة، لم يرحم توسُّلاتها الواهنة، وحاولت سجى التملُّص مرارًا إلا أنَّ خدرًا أصاب جسدها الواهن فلم تستطع تحريكه، وأصاب الخرس لسانها فلم تستطع طلب المساعدة.
تمكَّن من خدش حيائها، ونسف ما تبقى لديها من كرامة، أفلحت في نزع يده عن جسدها أخيرًا، ولاذت بالفرار تاركة كرامتها مبعثرة أرضًا بعدما دهسها الوغد، وفتتها إلى حطام، لطخ دنس يديه شرفها وحفر أثر أفعاله القذرة الناجمة عن شهوة حيوانية في ذاكرتها للأبد، ركضت سجى صوب الباب، وحاولت فتحه مرارًا إلى أنْ تمكَّنت من ذلك في اللحظة الأخيرة قبل أنْ يتسنى للمدير استعادتها إلى الداخل، ركضت في طرقات الشركة لا تلوي على شيء وقد تشابهت الطرقات وأضحى الطريق إلى باب الخروج غامضًا إذ فتك بقلبها الخوف، وساد وجدانها فحرمها التفكير الرزين، ثم غادرت الشركة إلى الشارع فور اهتدائها إلى المخرج، وبكت كما لم يسبق لها أن فعلت، وتملكتها صدمة هائلة ظنتها ستودي بحياتها، شعرت بالخزي إذ اعتدى عليها المفترس، ولم يكن منها إلا أنْ تجمدت ولزمت سباتًا مهينًا، ندمت إذ صدقته يومًا، وألقت

بنفسها في شباكه، فافترسها ما إن وجد الفرصة سانحة، جعلت تعض أنامل الندم إذ جرها طمعها بالترقية المزعومة إلى فم ذلك المتوحش ليلوكها بين أنيابه لقمة سائغة، وليعبث بشرفها، ولينال من كرامتها.

ليتها استغاثت وفضحت أمره قبل أن يقودها إلى عرينه المعتم وليظفر منها بما يشاء!

ليتها تحدَّثت قبل أن تقع في مصيدته، ويتلذذ بانتهاكها إلى حد النشوة!

وبعدما ابتعدت عن الشركة، جرت قدماها جرًّا من فرط الإنهاك لتركب سيارة أجرة توصلها إلى البيت، انتبهت إلى رنين هاتفها الجوال، وكان الاتصال من زوجها الذي عصف القلق بعقله، وتمكنت الظنون من ثباته الانفعالي، غرق في دوامة من ارتياب وخوف، وتغلَّب خوفه على غضبه المتقد.

خشي فقدان رفيقة عمره وأنيسة وحدته، فلم يظفر غضبه بوسام الانتصار، بل تداعى أمام إشفاقه من أن يكون مكروه قد أصابها، لم تستطع سجى الرد رغم رغبتها به إذ جهلت بما تجيب تساؤلاته، وكيف تبرر موقفها الذي بلغ من الحقارة والذل مبلغًا، لحقها خوفها إلى البيت، فلم تستطع الفرار من قبضته، آلمها وقوعها فريسة لوغد ذي خيالات مريضة وشهوات جائرة، تساءلت إن كانت تعاستها ستشفع لها لدى زوجها الغاضب إن هي أخبرته بحقيقة الأمر، أم أنه سيقرر تركها بدوره، فتعلق في سجن مخاوفها منفردة لا يؤنس وحشتها إنسان، دلفت إلى المنزل في وجلٍ، وتجلى البؤس في عينيها المنهكتين وشبه المغلقتين.

كان شاهر قد بلغ المنزل قبيل عودتها بعدما يئس من العثور عليها، وقرر انتظارها على أحر من جمر بعدما غدا كرة يركلها الشك في ملعبه، انتبه إلى حزن ومرارة بدت في نظراتها التائهة التي تصافح الواقع بأصابع واهنة، فلا يبصر أحد ما يصلها بنسيجه من خيوط دقيقة مآلها التمزُّق.

سألها شاهر:

"ماذا حدث يا سجى؟"

انفجرت سجى باكية ولم تحر جوابًا، فصرخ شاهر:

"أخبريني، إلى أي مدى تطورت علاقتكما؟!"

لم تستطع الكلمات الإفلات من بين شهقات ونحيب؛ فصرخ شاهر مجددًا:

"لماذا فعلت بي ذلك يا سجى؟ هل أخطأت بحقك؟ لماذا خنتني؟!"

جعلت سجى تهز رأسها نافية بين بكائها الذي استحال نشيجًا مطولًا..

"تكلمي! ماذا جرى يا سجى؟ ماذا فعل بك؟!"

"لم يحدث شيء! صدقني، لم يحدث شيء".

"إذا لماذا تبكين؟ هل اعتدى عليك ذلك الوغد؟"

قالت سجى بحرقة:

"لم أدرك أني أسلمت نفسي لمفترس محنك سوى اليوم، لقد وعدني بالترقية إن أنا أطعت أوامره، وأخبرني أن لقاءاتنا لن تتجاوز الحديث بشأن أمور العمل وما إن أطعته حتى هددني بإخبارك بأمر

لقاءاتنا.. لم أدر حينها ما أفعل، وانغمست في وحل لعبته المحبوكة أكثر فأكثر، وابتلعتني إلى داخلها كما رمال متحركة، فكنت كلما حاولت الإفلات غمرتني الرمال أكثر، ابتلعت الطعم وجاريته في لعبته القذرة إلى أن.."

استغرقت في البكاء وصرخ بها شاهر يستجديها لتتم عبارتها:

"إلى ماذا؟!"

قالت:

"إلى أن لامسني بأنامله القذرة، وانتهكني بشهوته المقززة، إلا أني لم أخُنك يا شاهر، ولم يتجاوز الأمر لمسات غادرة وقبلات طبعها على وجنتي، بينما تجمَّدت في مكاني، ولم أستطع الإفلات إذ أحاطني بذراعه، رجوته ليتوقف إلا أنه استمر ينتهك كرامتي، ويخدش حيائي فلم تردعه توسلاتي المطولة".

اندفع الدم إلى وجه شاهر وجعلت أطرافه ترتجف غضبًا، اندفع نحو الباب فاستوقفته سجى قائلة:

"إلى أين أنت ذاهب؟"

صرخ شاهر:

"سأقتله.. سأنال من ذلك الوغد وأقتص لكرامتك.. سأجده مهما كلَّفني الأمر!"

اعترضت سجى طريقه فصرخ مجددا:

"ابتعدي عن طريقي!"

قالت سجى تستجديه:

"أرجوك ألا ترتكب حماقة يا شاهر! ابقَ إلى جواري أرجوك؛ فأنا بحاجتك أكثر من ذي قبل".

سألها شاهر معاتبًا بينما تجمعت الدموع في مقلتيه تأثرًا:
"لماذا لم تستغيثي بي يا سجى؟ لماذا لم تعلميني بالأمر؟ لماذا تركت ذلك الوغد ليبتزك طيلة هذه المدة؟"
قالت باكية:
"خشيت أن تسيء فهمي، وأن تظن بي الظنون.. أرجوك أن تسامحني يا شاهر!"
ضمها شاهر إلى صدره متذكرًا وصية والدها له بأن يعتني بها من بعده، توسَّم أن تفلح كلمات الأب الراسخة في وجدانه في محو آثار الغضب، وطمس مشاعره القوية، ووأد نيرانه المستعرة في حفرة تغطيها الرمال، تمنى لو يفلح في الإعراض عن مشاعر الغضب إزاءها، وأن يجعل سلامتها النفسية نصب عينيه، لم تكن سوى ضحية لمفترس أساء استغلال حاجتها؛ لذلك فلا يجدر به أن يزيد معاناتها أضعافًا بصب غضبه عليها.
تركت سجى العمل بالشركة، واستنكرت زميلاتها رحيلها المفاجئ الذي لم تسبقه أيُّ مقدمات، كانت وئام على يقين من أن خطبًا جللًا وأمرًا فادحًا قد وقع ليدفعها إلى المغادرة بغتة، لم تبح لها سجى بعزمها على ترك الشركة، وقد عدتها وعاء أسرارها، فكان يجدر بها إخبارها بما نوت فعله قبل أنْ تقدم عليه، جعلت تفكر فيما يمكن أن يكون قد حصل بينها وبين المدير، كانت على يقين من أن تملقها إياه واستجابتها لإغراءاته لن يفضي إلى نتيجة طيبة

بل سيحمل في طياته عواقب كارثية، وما إن تحل نوازل تجربتها المتهورة على حياتها من جراء رعونتها المفرطة، فستنقلب حياتها رأسًا على عقب، ولن يعود الهدوء نفسه يكسو أيامها بل سيعصف به تهورها المبالغ به، ويذرو جزيئاته في كل اتجاه، قررت وئام أخيرًا زيارة سجى برفقة بعض زميلاتها، واستيضاح سبب تركها المباغت للشركة.

قصدت سجى قبر والدها حاملة شتلات الريحان التي ابتاعتها من مشتل مجاور، قامت بغرسها في التربة وريها بدموعها قبل أن تسقيها الماء بإبريق جلبته معها، غمر الماء الوفير التربة فارتوت بعد جفاف دام طويلًا، وبعدما سكبت الماء، تحسَّست التربة لتتأكد من ابتلالها جيدًا، وأن الماء قد طال جميع الشتلات التواقة للسقيا، أدنت يديها من أنفها تتنسَّم عبقًا علق بها أثناء زراعة الشتلات، وحملت لها الرائحة ذكرى والديها الراحلين، فتداعى تماسكها وانتهى أمره، جعلت تذرف دموع الحزن إذ أذاقتها الذكريات الفواحة صنوفًا من العذاب، وانتهى بها ألمها المبرح إلى سجن تتسلق جدرانه العناكب إذ نسجت خيوطها الدقيقة في أركانه كما حفرت فئران رمادية جحورًا كثيرة لتسكن الجدران التي ملأتها الفوهات. حدَّثت والدها قائلة:

"لم يكن ذلك الوغد ليجرؤ على تخطي حدوده معي إن كنت لا تزال على قيد الحياة يا أبي".

ثم طرحت أسئلة لا يملك مخلوق إجابتها:

"لماذا تركتني ورحلت؟ لماذا تركتني لتكبلني أغلال حزني وليفطر الأسى قلبي؟ لماذا تركتني وحيدة بتلك الغابة المسماة بالحياة ليفترسني ضبع لا يعرف للرحمة معنى؟"

بكت لبعض الوقت ثم تابعت:
"كنت ساذجة يا أبي، وكنت بحاجتك لتوقظني من أحلام وردية كادت تفضي بي إلى هلاك محتم، جعلت رعونتي زواجي على المحك، وكدت أخسر الإنسان الذي مكث إلى جواري حين صفعتني الحياة بنوازلها، وجرعتني مشقتها وألمها المبرح، كدت أخسر حياتي وشرفي إذ امتدت يد ذلك الوغد لتنتزع كرامتي ولتظفر بلمسات قذرة لا زلت أجد دنسها عالقًا بجسدي.. ليتك هنا يا أبي! أحتاج إليك أكثر من أي وقت مضى".
أفاقت لواعجها من سباتها وطرحت أشواكًا مدببة بطريق تعافيها التي لم تعرف سواها، فلم تستطع اتخاذ مسار مغاير، بكت حتى تهدلت جفونها، ونهض وحش الفقد من قمقمه ليمثل أمامها بوجه مربد، ويتوعدها بقضاء ليلة تدور فيها حوامات ذاكرتها في فلك مقتطفات ولقطات تخص أيامًا بائدة، فتتجلى صوب ناظريها، وتوقظ مشاعر شوق حاولت إخماد جذوتها وإبقاءها نائمة طيلة الشهور الماضية، لم يفت وجدانها أن ينهل من مستنقع البؤس، ويتجرع مياهه شديدة الملوحة لتفتك بمعدته، فما كان منه إلا أن شرب المزيد منها، واستمر يعب الماء عبًّا حتى قررت سجى مغادرة القبر، وآل أنسها بمكوثها قرب والدها إلى نهاية، فارقت حبيبها الأول، وأدبرت تاركة أثر مرورها متجسدًا في شتلات الريحان ذات الرائحة العطرة، لحقتها الرائحة، ولحقتها

الذكريات حتى كادت تندم على قدومها إلى القبر، أيقظت أشباح ذكريات ستطاردها في يقظتها ومنامها لأيام قادمة، ولم تدرِ كيف لها أن تبقي أشباحها تحت السيطرة؛ كي لا تفرض هيمنتها على أيامها التعيسة.

وحين عادت إلى منزلها، قصدت الأصيص قرب النافذة.. ومجددًا قامت بغمر التربة بالماء ليفوح عبير ذكريات جمعتها بأمها هذه المرة، تذكرت محاولتها تحطيم الأصيص في لحظة غضب؛ إذ ظنت بوصية أمها الظنون حين لم يفلح اعتناؤها بنباتات الريحان في الإبقاء على علاقتها بوالدها ففارقها تاركًا أصيص الرياحين شاهدًا على خطأ زعم أمها وزيَّف معتقدها الخلق، سعدت إذ أفضت محاولتها تحطيم الأصيص إلى فشل، وشعرت بالامتنان لزوجها الذي أحبط محاولتها، وأنقذ الأصيص، تبارى في نفسها حبها لنباتات الريحان وبغضها لتخاذلها عن حماية علاقاتها.. وكاد غضبها ينتصر على حلمها إزاء وصية أمها فقررت ترك الأصيص وشأنه، والابتعاد عنه خشيةً أن يدفعها غضبها المتصاعد إلى ارتكاب حماقة جديدة.

حزنت سجى إذ أرغمتها تصرفات مديرها على ترك عملها الذي أحبت، وأغرقها الفراغ في تعاستها، وأسلمها لوساوس تتجهمها، وتعترض طريق تعافيها من آنٍ لآخر، تفتق ذهنها عن أفكار نكراء وجرعتها الوساوس مرارة أدمت حلقها وآلمته كثيرًا، جعلت تلك الهواجس تتردد في دماغها وتدور في أفلاك حيرتها الهائلة، فلم تتوان عن إزعاجها، وتركت دماغها أسير اضطراب عارم عصف بقواه، وسقاه الوهن وجرعه الخيبة، تكالبت المآسي على وجدانها، ولم تكف عن التوارد عليه ليل نهار وتكدير صفحته وزعزعة

استقرارها، اجتاحها البؤس وبسطت الكآبة أذرعها كما أخطبوط هائل في نفسها التي اهترأت بفعل تلاحق الكروب الموبقات، بات الهلاك الحتمي يتربَّص بها، وظلت عالقة في برزخ بين حياة مؤلمة تكبدها ألوان المشقة وبين هلاك بقي ماكثًا قربها كما احتمال ينتظر أمرًا بالحلول، انتظرته طويلًا أن يحل لينتشلها من معاناتها التي جعلت من حياتها كابوسًا حيًّا لا يطيقه مخلوق إلا أنه بقي مكانه متربصًا بوجه متجهم عاقدًا النية على تجريعها مرارة الانتظار.

أتت وئام بصحبة بعض زميلاتها لزيارة سجى في منزلها، عانقت وئام سجى بحرارة ونزعت سجى رداء يخفي مشاعرها بين ذراعي صديقتها، فتكشف الألم من فوره، وأتاحت لعبراتها الانهمار وإفشاء أمر حزن يدمي قلبها ليل نهار، ليذره متقرِّحًا دونما ضماد، مكثت في أحضان صديقاتها وقتًا مطولًا لتنهل من الأنس بوجودهن ما يروي ظمأها لعلاقة تفيض حنانًا وتفهمًا، اكتفت من لعق جراحها الغائرة بنفسها، وودت لو يضمدها أحدهم، ويشاركها حمل تركة أضناها ثقلها، وأنقض ظهرها.

جلست وئام إلى جوار سجى على الأريكة، وجعلت تربِّت على ظهرها مواسية إياها، بينما تذرف الأخيرة الدموع بحرقة، أيقنت وئام أن خطبًا ما قد وقع، وحزرت أن علاقتها بالمدير هي ما أفضى بها إلى تلك النقطة القاحلة والألم المبرح.

قالت وئام بينما تتحسَّس خطاها إذ ولجت مساحة شائكة وحقلًا ملغمًا:

"ماذا حدث يا سجى؟ لماذا تركت العمل فجأة؟"

همست سجى وكأنما منعها شيء ما من الحديث، وحال بينها وبين الإفصاح عن سبب مغادرتها:

"اضطررت لذلك".

توغَّلت وئام أكثر، بغية إماطة الدثار عن حقيقة مؤلمة عل صديقتها تجد البوح شافيًا:

"هل كان للمدير علاقة بالأمر؟"

حاولت سجى كظم عبرات خانقة إلا أنها لم تفلح في كتمان بكائها طويلًا، فانفجرت في نشيج مرير.. ضمتها وئام إلى صدرها في حنو، وحاولت التهدئة من روعها قائلة:

"لا تخافي يا سجى، لن يستطيع أن يؤذيكِ بعد الآن، ولكن أخبريني ما حدث لأتمكن من مساعدتك".

تمنَّعت سجى في الإجابة إلا أنها باحت بأمر التحرش أخيرًا أمام إلحاح زميلاتها، وبعدما أخبرتها أن ترددها سيسفر عن نجاته بفعلته، عزمت وئام على مساعدتها للانتقام منه، وقالت:

"ليس سوى مبتز مرتش متحرش، ومكانه خلف القضبان ليس إلا! لن نعدم وسائل الإيقاع به.. لا تخافي؛ فسينال جزاءه متى تحليت بالشجاعة اللازمة، ستوبقه أفعاله في نهاية المطاف، لن يكون تحرُّشه بكِ سوى مسمار أخير يُدَق في نعشه، سيلقى عقابه، ولكن لا تتخلي عن حقك مهما حدث، ولا يزجرنك نباحه، ولا يطالك ابتزازه الدنيء،

تذكَّري أنه ليس سوى حشرة مقززة تترفع الأقدام عن دهسها خشية اتساخ نعالهم!"

أومأت سجى برأسها في امتنان، أثمنت مؤازرة صديقاتها واحتوائهم لوجعها، ولشعور الخزي الذي خلفه ابتزاز المدير لها.

صار بإمكانها الآن أن تغفو مدركة أنه ثمة من يشاطرها المعاناة، وأنه هناك من يعتزم مساعدتها للانتقام ممن انتهك جسدها، واستباح كرامتها بوقاحته وفعله الدنيء، شاركتها زميلاتها حمل السر الذي أرقها وكدَّر صفو أيامها طويلًا.

سألتها إحدى زميلاتها مشيرة إلى أصيص الرياحين:

"أما زلت تتعهدين تلك النباتات بالرعاية؟ ليتني أعرف سرَّ اهتمامك وولعك الشديد بها دونا عن بقية النباتات!"

وأمَّنت أخرى على كلام الأولى قائلة:

"لقد فكرت بالأمر طويلًا إلا أني لم أهتدِ لإجابة شافية، هل تحمل لكِ تلك النباتات ذكرى معينة؟"

ابتسمت سجى ابتسامة تحمل مسحة من حزن دفين وطالعت النباتات بعينين مغرورقتين بالدموع، وكأنما تستجديها لتجيب عنها وإلا تفجر نبع الذكريات من جديد، فيتوجب عليها لملمة شتات مبعثرة وترتيب الفوضى التي سيحدثها نكأ الذكريات ووطء محرابها ذي الأرضية الزلقة، خشيت أن تنزلق إلى داخله فتعلق في هلام وعصارة لزجة، ويغدو الفرار مستحيلًا. قالت سجى عقب صمت طويل:

"إنه وصية والدتي، أورثتني إياه، وأوصتني بالاهتمام به؛ فهو حصن الأمان لعلاقاتي، والتي يؤدي حسن الاعتناء بها إلى اخضرار وإزهار، ويفضي إهمالها إلى ذبول واصفرار".

لم تفهم زميلاتها كلامها تمامَ الفهم، ولم يفهمن أنها تعد اخضرار الأوراق ورونقها البهي مقياس نجاح علاقاتها وأمانها، تبادلن نظراتٍ حائرة، إلا أنهن أدركن أن الرياحين تعني لها الكثير، أشفقن

عليها من الإيذاء الذي تعرَّضت له من قِبَل المدير المتحرش وغادرن بعدما عاهدنها على ألَّا يدخرن جهدًا في سبيل استعادة حقها المنتهك، تراءى لها أمل طفيف كما شمس يوم شتوي بارد، تحاول جاهدة إرسال أشعتها بين الغيوم الكثيفة التي تحجب زرقة السماء.

جلس شاهر إلى جوار سجى وقَبَّل جبينها، ثم تعانقت نظراتهما عناقًا حارًا.. حملت نظرات سجى أسئلة محيِّرة تربع على عرشها:

"ما العمل الآن؟"

هتف داخلها بالسؤال مرارًا، فقام شاهر بضمها بذراعه مربِّتًا على كتفها، وكأنما يؤازرها ويعلمها أنه ماكث إلى جورها ولسان حاله يقول:

"أنا بجانبك، فلا داعي للخوف مطلقًا.. سنخوض الطريق معًا، فلا تقلقي حيال محنة عارضة سنجتازها سويًّا".

تمتمت سجى، وفي عينيها امتزجت عبرات الامتنان بدموعِ الألم:

"أحبك".

اختصرت كلماتها مشاعر امتنان جارفة نضح بها وجدانها، وتشبَّثت روحها المتألمة بشراع قاربه الممزق، ليخوضا غمار الموج الهادر سويًّا.

لم يكن قاربهما سوى زورق نجاة خشبي مهترئ، وكانت الأمواج العالية تهدد بابتلاع زورقهما الخلق بين فنية وأخرى، لم يعبأ شاهر بعلو الأمواج، وجعل وصية الأب نصب عينيه، فلم يذر المسكينة لتداهمها كربات قاتلة، ولتجتاح مخاوف مروعة باحة اطمئنانها، فتغتاله بسكين مدبب عيانًا جهارًا.

قرر أن يحمل عنها أثقالًا أنهكتها، فلا يكون عليها سلك الدرب المقفر بمفردها دونما زاد أو جواد.

وفي اليوم التالي، قصد شاهر الشركة لا يكاد يبصر أمامه بينما يتصبَّب جبينه عرقًا غزيرًا، وتغيم عيناه تارة، وتنقشع غمامتها تارة، قطع طرقات الشركة بينما يقرع الأرض بخطواتٍ ثقيلة تحمل غضبه المتعاظم.

أدرك أن لن يطفئ نيران غيظه سوى انتقام ينتزع المشكلة من جذورها، ويجد لها حلًا فينتقم لعرضه، ولا يُبقي للتهاون محلًا.

أقسم أن ينتقم من الغول الذي روَّع زوجته ولطَّخت لمساته كرامتها، اقتحم مكتب المدير عنوة ففزع الأخير، وانتفض بينما يجلس خلف مكتبه غير مبالٍ بما قد تذروه الحياة في وجهه من بلايا متغافلًا عن فعلته الدنيئة.

تقدَّم شاهر نحوه وجذبه من ياقة قميصه، فانتصب واقفًا.. صرخ شاهر:

"كيف تجرَّأت على فعلتك المشينة بزوجتي؟ كيف تجرَّأت يداك على مس جسدها العفيف؟ كيف اقتنصت منها مرادك الدنيء بينما لم تؤذِك قط؟"

أطلق المدير قهقهة عالية غير مبالٍ باتهامات شاهر المتتالية ما أثار غضب شاهر فصرخ به:

"علام تضحك؟ هل قلت ما يدعو للضحك؟ سأجعلك تتمنَّى الموت فلا تجده، سأجعلك تعض أناملك ندمًا على فعلتك!"

كظم المدير قهقهته خلف ابتسامة ماكرة، فانطلقت مكتومة ما زاد من غيظ شاهر حتى كاد يُجنَّ وصرخ مجددًا:

"علام تضحك؟ حسنًا، أرني كيف ستضحك حين يضحي مكانك خلف القضبان!"

قال المدير أخيرًا بعدما استعاد جديته:

"إنها مَن أرادت ذلك.. إنها مَن أسلمت لي جسدها في سبيل ترقية تافهة، لا تلُمني يا صاحبي؛ فلم أفعل سوى إغوائها، بينما تكفَّلت هي بالاستجابة الكاملة، أنت المُلام في ذلك؛ فلم تحسن كبح جماحها، فتكفل جمالها بإيقاعي أسير طلتها الساحرة".

غلى الدم في عروق شاهر، فسدد لكمة للمدير بقبضته، ثم قال:

"يا لك من وقح! لا أسمح لك بأنْ تسيء لزوجتي.. لست سوى حيوان لا يخضع إلا لشهواته".

قال المدير مهددًا:

"أنت ترتكب خطأً فادحًا باعتدائك عليَّ، وسأجعلك تدفع ثمنه غاليًا".

أمسك شاهر بتلابيبه مجددًا، وكاد الأخير يختنق من جراء قبضته القوية، تجمهر بعض موظفي الشركة صوب الباب إذ استدعاهم صوت صراخ شاهر، ولم يجرؤ أحدهم على التدخل إذ خشوا أن يطالهم غضب شاهر المضطرم.. وأخيرًا، وصل رجال الشرطة الذين استدعاهم شاهر قبيل وصوله إلى الشركة، فاقتحموا الحشد المتجمهر أمام الباب، وقاموا بإفلات المدير من قبضة شاهر.

باغت حضور رجال الشرطة المدير المجرم فاختفت ابتسامته النكراء، ثم جرى تكبيله بالأصفاد ليتم اصطحابه إلى قسم الشرطة حيث سيجري التحقيق معه تمهيدًا لمحاكمته فينال عقابه، ويتم الزج به في ظلمات السجون.

انفض الجمع وشعر شاهر بأنه استعاد قدرًا يسيرًا من حق زوجته الذي كاد يتوه في درب معتمة، واسته حقيقة أن سجى ستجده يومًا ذليلًا في قفص الاتهام يتوسَّل إليها طويلًا أن تصفح عنه وسيبكي دمًا ليستجدي عطفها، فتعرض عنه وتنضح نظراتها بانتصار محقق يطيب جرحها النازف.

أخبر شاهر زوجته بما صنع، فتلقَّت الخبر بذهن شارد يرمح في وديان الحداد بقدمين داميتين، أطرقت طويلًا، واجتر ذهنها دموعًا ساخنة إلى مآقيها.. جلبت سيرة المتحرش ذكريات وصورًا نكراء إلى ذاكرتها ما أخافها كثيرًا. قال شاهر:

"ما بالك؟ ألست سعيدة بإلقاء القبض عليه؟"

أومأت برأسها في عجالة، وتابعت اجترار الذكريات المبكية التي لاحت في أفقها دونما رادع. فطن شاهر لألمها المبرح إذ وجدها تبكي بحرقةٍ، فقال:

"لا بأس يا عزيزتي، سيندمل جرحك بمضي الوقت".

لم تصدِّقه، وخيِّل إليها أن ذكرى التحرش ستلاحقها إلى الأبد، ثم أعلمها شاهر باستدعاء الشرطة لها للإدلاء بأقوالها.

فزعت سجى من اضطرارها لمواجهة المجرم من جديد؛ أعلن جسدها الاستنفار وارتسم الخوف والاضطراب على ملامحها ثم قالت:

"لست أرغب بمواجهته من جديد".

قال شاهر:
"كوني شجاعة يا سجى، ولا تدعي جهودنا للإيقاع به تذهب سدى.. لا تدعي المجرم ينجو بفعلته ولا تخافي؛ فسأكون إلى جوارك".
سرت رجفة بجسدها، وآثرت إخفاءها والتحلي بالشجاعة؛ كي لا تذهب محاولات زوجها لاستعادة حقها أدراج الرياح.
ربَّت شاهر على ظهرها، وعانق عينيها بنظراتِ حنونٍ بغية طمأنتها. وزرع السكينة في كيانها الواجف.
ذهبت سجى برفقة شاهر للإدلاء بأقوالها تقدم قدمًا وتؤخر الأخرى، أدركت أن ترددها لن يصب في مصلحتها بل سيصب في مصلحة الجاني دونما شك، وحاولت تغليب إرادتها الصلبة على مشاعر جامحة عصفت بكيانها، إلا أنها ما إن أبصرته جالسًا حتى استبد الخوف بوجدانها وودت لو تلوذ بالفرار، تحاملت على نفسها لتبقى وآزرها شاهر، فوضع كفيه على كتفيها، ووقف خلفها مباشرة، ثم همس إليها:
"تشجعي يا سجى".
نظرت بعيني المتحرش، فوجدتهما تطلقان شررًا، وتنضحان شرًّا خالصًا.. أفزعتها ابتسامته اللامبالية كما أفزعتها عيناه اللتان تقتحمانها اقتحامًا، أفرغت سجى ما بجعبتها؛ فجعلت تسرد ما حدث تمامًا كما وقع، واستعادت الذكريات بينما ترتجف أطرافها، وتتداعى كلماتها تحت وطأة مشاعر قوية.
حاولت التماسك؛ فلم تشأ أن يغلبها الانهيار بين يدي ذلك المجرم.. فضحت جرمه الفادح، وانتقت من جعبة شجاعتها

النادرة من الوسائل ما يعينها على استعادة لحظات جاهدت طويلًا لتدفنها تحت ركام الإنكار، وحين أنهت الإدلاء بأقوالها، أعادت النظر إليه فوجدته يرمقها باستهزاء، وكأنما يجهل ما هو مقبل عليه.

صوَّبت إليه نظرة استحقار أودعتها كل شعور بالاشمئزاز حملته في جعبتها، ثم غادرت غرفة التحقيق برفقة زوجها، والذي حمل لها من الفخر ما يكال بالذهب. همس لها:

"أنا فخور بك".

أومأت برأسها بينما تنهمر الدموع من مآقيها منذرة بانهيار وشيك.. وحين ابتعد كلاهما عن الغرفة، أطلقت لمشاعرها العنان، واستغرقت في بكاء مرير ونشيج مدو مطول فضح ما استحوذ عليها من ألم، وما أنهك وجدانها من حزن وخيم العواقب وما أسرها من أسى شيَّد أسواره حول قلبها المفطور وجعًا.

ضمها شاهر إلى صدره، وجعل يربِّت على ظهرها في حنو، وقد آلمه أنها اضطرت لمكابدة ألم كهذا، بينما لا يزال على قيد الحياة.

شعر بالأسف تجاهها، وأبكاه اعتقاده بأنه تخاذل عن نجدتها عبرات ساخنة.

مرَّ أسبوع استعادت فيه سجى بعض سلامها النفسي وتراجعت عن استقالتها، إلا أن وقع الصدمة خلف آثارًا مؤلمة كما كدمات ستبقى بجسدها ما بقيت؛ فكانت تستعيد الحدث مرارًا وتبكيها ذكراه كثيرًا، تقرع ذكرى اللمسات باب مخيلتها، وتخترق حجاب ذاكرتها مقتحمة إياه لتجر روحها إلى جحيم مستعر، فتتفحم وتتحول شوارد أفكارها وسريرتها المستقرة إلى رماد، فينتفي أمنها واستقرارها

إلى الأبد، وتحوم الذكريات المرة في فلك عقلها لتركل معاني الأمان ركلات موجعة، فيفتح لها الحزن الباب على مصراعيه، ويرحب بوجودها إذ تؤجج لهيبه، وتؤمن وجوده، وتجعله سرمديًا.

انتقى عقلها الذكريات الموبقة، وجعل يلوكها كما علكة ذات نكهة سيئة، لم يشبع من مضغها قط، بل استمرت أسنانه تتشدق بها وتتجاذبها بشكل مزعج مقيت.

حاولت أنْ تجتاز الجسر المتآكل إلى بر الأمان إلا أنها علقت في دوامة ذكرياتها العابسة تتجهمها وتفترس استقرارًا زائفًا، زعمت أنه سيسود وجدانها قريبًا.

غرقت في بحر الهلع وضلت طريقها إلى مرفأ آمن، لم تستطع إيجاد طوق نجاة سوى واحد مثقوب، وما إن تشبَّثت به حتى هوت إلى قيعان التعاسة مجددًا.

استفحل ألمها، وتصاعدت ألسنة النيران الجامحة، وجعلت الريح تذرو الرماد في شتى الاتجاهات، حاول شاهر مواساتها، وحمل الثقل عن كاهلها إلا أنها زعمت أنه لا يشعر بما تشعر. سجنها ألمها في غرفة رطبة ومظلمة لا ينفذ إليها ضوء قط، وكبلها إلى قضبان من حديد ما أعجزها عن الحراك، ولَّد الألم آلامًا متتالية تنضم إلى حلقات سلسلة قيدتها، وجعلت من الفرار أمرًا مستحيلًا، صرخت طويلًا إلى أن بح صوتها، وعدمت حيلا منجية من بأس نوازل مروعة حلت بحياتها فكادت ترديها.

توخى شاهر الحذر حين يخاطبها، وجعل يتحسَّس خطاه إذ بات السبيل إلى عقلها ملغمًا، وإن لم يحسن انتقاء كلماته، فقد يفجر لغمًا مخفيًا في الطريق الوعرة، فيحرق وجهه وجسده.

لم يفلح في تخطي الألغام، بل انفجر الكثير منها في وجهه مخلفين ندبات دائمة، قد يزهد في الحديث إليها اتقاء لشر كلماتها المؤذية وردودها التي لا تفشل في مفاجأته في كل مرة فتباغته وتفجعه، وما إن يقرر تجنبها حتى يعدل عن قراره في التو واللحظة ليعاود مواساتها ومجاراة أحزانها التي تفيق من رقادها، وتلفح نيرانها وجهه من جديد.

لم تفق سجى من توالي ذكرياتها، فصفعها الحزن مرارًا، وكال لها جلدات موجعة بسياطه القاسية.

وذات يوم، اكتشفت سجى أنها حامل، باحت بالأمر لزوجها فلم تسعه السعادة بل غمرته من رأسه إلى أخمص قدميه.

أخيرًا سيتحقق حلمه الذي طارده ليالٍ طويلة، ولم يبرح الحلم بدوره ذهنه ولم يكف عن إضفاء السرور على وجدانه وتسليته بأماني رغدة تجعله يتجرَّع السعادة حتى يثمل، سيُرزَق بطفلٍ أخيرًا ليغمره بالحب، وليتغمَّده بعنايته.. ضم سجى إلى صدره، وقد امتلأت عيناه بدموع الفرح، توسَّد الفرح ولاحق ضروبًا من سعادة غامرة أسبلت ثوبها على وجدانه التعس ليذر حزنه، وينهض من سباته ليرقص على أنغام الخبر السعيد.

عاهد نفسه على حسن الاعتناء بزوجته وتلبية رغباتها مهما بدا الأمر عسيرًا، تشاركا ذرف عبرات السعادة، ثم خالج سجى خوف من ألَّا تكون على قدر التكليف فلا تحسن الاعتناء بصغيرها.. تسلَّل الخوف إلى وجدانها متمهلًا، وكاد يسلبها سعادتها السالفة.. امتزج خوفها بمشاعر الفرح، فكدَّر صفوها وكساها بلونه الرمادي الأجوف.

لمح شاهر الخوف في عيني زوجته، ولاحظ تبدُّل ملامحها وعبوسها المفاجئ.. مسح دموعها بأنامله، ثم وضع وجهها بين كفيه، نظر بعينيها مباشرة، وقال:

"لا تخافي، ستكونين خير أمٍّ لذاك الصغير، وسأكون إلى جوارك متى احتجت مساعدتي".

أومأت سجى برأسها، وجاهدت لترسم ابتسامة على وجهها في امتنانٍ لكلمات زوجها التي هوَّنت من بأس مشاعر الخوف، التي كادت تطغى على سعادتها الوليدة.

كانت أمزجة سجى تترنَّح بين هدوء وعنفوان؛ فتارة يشتعل غضبها لأتفه الأمور، فتصرخ وتولول ليسير الأسباب، وتارة تهدأ كأن لم تصبها نوبة الغضب آنفًا، فتتحدث بهدوء وحكمة، وتسبل رداء السكينة على جسدها الذي انتفض منزعجًا مُنذُ لحظاتٍ هينة.

تعجَّب شاهر من تقلُّبات مزاجها إلا أنه بذل جهدًا هائلًا في تقبُّل النوبات التي اعترتها، باتت تتقلَّب بين هدوء يتغمَّدها وبين نوبة غضب تهيج أعصابها، فتثور كما ليث ويعلو زئيرها.

احتمل شاهر نوباتها على مضضٍ، وكان حبه لها وقودًا لاحتماله ضجرها وهياجها إلا أن كلمات الضيق أفلتت من شدقه ذات مرة، فقال:

"سأمْتُ غضبك ذاك! ألا يمكنك السيطرة على مشاعرك؟! لست بطفلة حتى أجمع شتاتًا خلفها غضبك المضطرم بعدما تتكفلين ببعثرة كل شيء!"

سكتت سجى حينها إذ ألجم كلام زوجها لسانها، وانتبهت إلى النتائج المدمرة التي أسفر عنها غضبها المستعر، لم يسعها سوى الاعتذار بصوتٍ واهن سمعه زوجها بالكاد:
"أنا آسفة".

صرخ مجددًا:
"أسفك لا يجدي نفعًا! لا بُدَّ أنْ تلملمي شتاتك بنفسك، وألَّا تتركي غضبك ليجتاح محيطك، وليدمر علاقاتك".
باشرت سجى البكاء، فقال شاهر مواسيًا:
"أعلم أنك تتألَّمين، وأن ما حدث ليس بهينٍ.. ولكن صبري قد أوشك على النفاد! لا أطيق احتمال نوباتك وهياجك الذي لا يعيق استفحاله شيء! سيفسد غضبك علاقتنا.. لقد أرغمتُ نفسي على تحمُّله، ولكن طفح الكيل يا سجى!"
أجهشت بالبكاء، فضمها شاهر إلى صدره، أشفق عليها إذ اعتراها ألم، مبرح والتحفت غشاء الندم، وجعلت تلهج بكلماتِ الاعتذار:
"أنا آسفة! آسفة؛ فلم أكن أقصد إزعاجك".
قال شاهر:
"أعلم ذلك، فلا تثقلي كاهلك بأعباء الندم، ولا تحمِّلي نفسك همومًا لا دخل لكِ بها".
جعلت تنوح واضطربت أنفاسها، أيقنت أنَّ علاقتها بزوجها باتت على المحك، وأنها المتهم الرئيسي فيما حدث.

باتت ذكرياتها التعسة تطاردها وتفسد قدرتها على كظم غضبها، وتنظيم مشاعرها التي صارت مبعثرة كما ثوب مهلهل.. وكما ثوب خلق امتلأ ثقوبًا، تردت علاقتهما وتآكلت، تناولتها حشرات زاحفة جلبها الماضي البائس إلى المشهد سريعًا كما وجبة سائغة، وتركت ثقوبًا كثيرة، وقوضت بنيانًا عكفوا على بنائه ردحًا من الزمان، فأوشك على الانهيار.

أدبرت الشجاعة، وحل الخوف نزيلًا على نفس سجى المضطربة؛ فاستحال محيطها المألوف غريبًا، وباتت تجهل تفاصيله، وكأنما محيت من ذاكرتها.. استحال خوفها غولًا هائجًا ينتزع الأمان من نفسها خائرة القوى انتزاعًا مؤلمًا كما ينتزع أحدهم الشوك المغروس بقوة في تربة لا تطيق فراقه، تضاعف خوفها إذ روَّعتها تفاصيل محيطها، وعدتها مثيرة للذعر، وكأنها لم تعرفها آنفًا.. وجدت الواقع حلمًا مزعجًا، لا مجال لمصادقته، وتفتتت قدرتها على مواكبة تغيراته، واستحالت ركامًا وفتاتًا، فبات الكابوس مطولًا لا يمكنها تقفي أثره إلى النهاية.

كالت الاتهامات لزوجها الذي أسقط في يده، فلم يدرِ ما يفعل، وشرع ينصحها بأن تعود لسابق عهدها، فقالت:

"أنت لا تشعر بما أشعر! إليك عني؛ فلست تفهمني مطلقًا".

أحزنته الكلمات القاسية، وآثر الابتعاد ريثما تستعيد زوجته هدوءها وتفكيرها الرزين، غشى الترقُّب والشك المميت علاقتهما، فكدر صفاءها، وأحالها بركة آسنة تسكنها الطحالب وترتع بها حشرات مؤذية.

استمر اضطراب علاقتهما لأمد غير هين، وظلت أفكار سجى القلقة ومزاجها الكدر يطوقان عقلها الذي غلب عليه خوف مؤلم وتعاسة موبقة، أما شاهر.. فتجنب حقل الألغام مرارًا، وحين تسنى له استجماع شجاعته واختراقه عاد نادمًا يحمل من أوزار الألم وكلمات العتاب ما يضني أعتى الرجال.

مرت أشهر عدة ثم وضعت سجى مولودها الأول أخيرًا.. لزم شاهر جوارها فلم يبرحه، وأمسك بكفها عله يرسل شعورًا بالأمان ليجتاز أوردتها، ويبلغ عقلها المكتظ بمشاعر الخوف.

انطلق صراخ المولود ليعانق الأثير، ويعلن قدومه إلى الحياة وحلوله ضيفًا عليها، فيعيش في كنف والديه ليتغمَّداه بالرعاية، وليوفرا له الأمان اللازم لنشأته صحيحًا مُعافى، وحين سمع شاهر الصراخ المدوي، غشيته سعادة هائلة، أصابته نشوة عارمة، ولم يطِق الانتظار ليحمل مولوده بين يديه.. سرعان ما حمله ليستكين الصغير بين يديه، ويكف عن الصراخ.. أمسك شاهر بيده الصغيرة، وقبض المولود على إصبعه بأصابعه الدقيقة، لم تسعه السعادة والحبور، قَبَّل جبين المولود، ورحَّب به قائلًا:

"مرحبًا بكَ يا صغيري.. مرحبًا بكَ إلى حياة نخوض غمارها معًا".

ثم التفت إلى سجى المنهكة تمامًا، فحيَّته بابتسامةٍ واهنة.

ناولها الصغير قائلًا:

"إنه ابنك يا سجى! أليس جميلًا؟"

أومأت برأسها موافقة، وتناولت الصغير قائلة:

"بلى، إنه أجمل من رأت عيني".

ضمت الصغير إلى صدرها، وجعل يلثمه بغية أنْ ترضعه، أدنته من ثديها وباشرت إرضاعه.. تدفق اللبن ليطعم حياة وُلِدت للتو، وما إن أنهى الرضاعة، أفصح الصغير عن وجوده للجميع بصرخاته المدوية التي تهدأ ما إن تهدهده أمه، فيضمر خوفه، ويستكين إذ تغمره باطمئنان ودفء، وتضمه إلى صدرها الحاني، وما إن نام الصغير حتى تناوله شاهر، وقام بوضعه في سريره ليستيقظ الصغير مجددًا، ويطلق صراخه المدوي، فيتناوله والده من جديد، ويواصل هدهدته على أملٍ أنْ يعاود النوم.

نظر شاهر لسجى ولمح في عينيها ترقُّبًا وقلقًا مما ستحمله الأيام القادمة.. حملت عيناه شعورًا مماثلًا، إلا أنه ابتسم بغية طمأنتها إلى أن الأمور ستكون على ما يرام، أيقنت سجى أن ما ينتظرها في الآونة القريبة ليس بهينٍ أبدا، وروَّعها ذلك كثيرًا، وخشيت ألَّا تستطيع الاضطلاع بمهامها كأمٍّ جديدة.

قالت لشاهر بينما تزأر سباع الخوف في ساحات نفسها القلقة:

"ماذا سنفعل يا شاهر؟"

تكلَّف ابتسامة مطمئنة، وقال:

"لا شيء، سنكون أبوين مثاليين فحسب".

لم تخمد كلماته نيران قلقها المستعر، وقالت المسكينة:

"أخشى ألَّا أستطيع الاهتمام به".

وضع شاهر يده على كتفها قائلًا:

"بل تستطيعين، وسأكون إلى جوارك على الدوام".

أومأت سجى برأسها، وقد زرع الشك بقدراتها شتلاته في حديقة وجدانها الذي اكتظ بمشاعر قاسية وقاتمة، تناولت الصغير

ودمعت عيناها فطالت إحدى عبراتها وجه الصغير لتسارع بمسحها عنه، كان دافئًا وجعلت تلثم وجنتيه، وتقبِّل يديه في تأثُّر، تداعى تماسكها وتبخر، فشرعت تبكي بقوة، وتنتحب حتى كادت روحها تفيض بين زفراتها، استغرقت في نحيب مروع، وشرع الطفل في البكاء مجددًا إذ أيقظه نواح أمه..

سألها شاهر:

"لماذا تبكين؟ ألست سعيدة بقدوم مولودك؟"

قالت سجى بينما تجاهد الكلمات لتتخطى بكاءها المرير، وتجد طريقها إلى لسانها الذي ألجمته الدموع، وصوتها الذي خنقته العبرات:

"لماذا يبكي كثيرًا؟ أهو يتألَّم؟"

قال شاهر وقد استهجن سؤالها:

"أبدًا! الأمر ليس كذلك، بل إنه يريدك أن تحمليه وأن تتغمديه بعطفك وحنانك.. شأنه كشأن سائر الأطفال".

قالت سجى بين شهقات قوية وزفرات كادت تزهق روحها:

"أنا خائفة! أخشى ألَّا أكون بمثابة أم جيدة! سيكرهني حتمًا! سيكبِّلني الحزن إلى قضبان نافذة سجنه المظلم، وسيعيقني الألم عن الإتيان بمهامي الجديدة.. سيطرحني في فراشي فلن أقدر على الاعتناء بالصغير".

قاطعها شاهر قائلًا:

"لا تخافي، سنجتاز الأمر سويًّا، وستكونين خير أمٍّ لذاك الصغير، ألا ترين كيف استكان فور وضعه بين ذراعيك؟! إنه يحبك يا سجى".

طالعت الصغير، وقد سكن جأشها بعض الشيء، ثم قالت:
"وأنا أحبه كثيرًا".
غمرت التساؤلات المحيرة عقلها، وتربع على عرشها تساؤل عما إذا كانت كفؤًا للاضطلاع بالمهمة التي أوكلت إليها، خشيت الرسوب بامتحان الأمومة الذي أسندته لها الحياة.. خشيت أن يعيقها حزنها وألمها عن الاهتمام بالطفل.
اصطحب الأبوان الطفل إلى المنزل، وكان شاهر خير عون لسجى على العناية بالصغير؛ فكان يبدِّل حفاظاته، ويحمِّمه متى تطلب الأمر، ويحمله ليجوب به أركان الشقة كي يكف عن البكاء، وكي يتسنى لسجى نيل بضع ساعات من النوم، أما سجى فاستسلمت لبكاء قوض بنيانها وطرحها في الفراش ليل نهار، فكانت بالكاد تطعم الصغير ثم تغرق في هواجسها وأفكارها المرعبة.. خشيت إيذاء الصغير، وخطرت ببالها سبل متعددة لذلك؛ فتارة تتصوَّر قتله بسكين، وتارة تلقيه من الشرفة ليسقط ميتًا، وتارة تخنقه حتى يلفظ أنفاسه، وتارة تضرم النيران في المنزل لتحرق كليهما.. تجسَّدت تلك المشاهد في ذهنها، وبدت التفاصيل حية غير مبهمة، وانتهى بها المطاف بتجنب حمل الطفل تمامًا.
كان شاهر قلقًا بشأنها إذ تردت حالتها النفسية، وبشأن الصغير الذي لم يقترف ذنبًا بحياته لتتفاداه أمه، خاطبها شاهر باللين تارة وبالحزم تارة أخرى، فقال:
"الصغير بحاجةٍ إليك، لست أفهم لمَ تهملين رعايته؟!"
لم تجب سجى، بل أشاحت بوجهها عنه متفادية نظراته التي تحمل عتابًا وجدته قاتلًا، أعرض عنها شاهر، وحمل الطفل الذي

مكث إلى جوارها على السرير طويلًا، فلم تعبأ بتبديل حفاظته، بل تجاهلت صراخه تمامًا كأنه لم يكن.

صرخ بها:

"متى تفيقين من غفلتك؟ ماذا فعل المسكين ليستحق إهمالك؟ أي أم تكونين؟!"

ومجددًا لم تجب سجى، بل أجهشت ببكاء مرير.. ضرب شاهر كفًا بكف، وابتعد حاملًا الصغير ليبدِّل حفاظته.

تواردت على ذهن سجى أفكار مظلمة كما سموم ناقعات سممت وجدانها، وخشيت إيذاء الطفل بإحدى نوباتها التي تدفعها لتخليصه من كروب الحياة ووجعها المستمر.

أخبرت شاهر ذات مرة:

"إنه يبكي كثيرًا.. أودُّ لو أريحه من معاناته"

انتبه شاهر إلى ما ينطوي عليه كلامها من تهديد صريح لحياة الطفل، وارتأى أن يخطو داخل محراب قناعاتها حذرًا يتحسس خطاه؛ خشيةً أن يصيب موضعًا خاطئًا، فيثير حنقها وغضبها إزاء وضعها المتدهور، ويربو ضيقها على حلمها، ويتفاقم خوفها على الصغير من خطوب تعتقد أنها تتربص به وتحيطه من كل اتجاه، فتود لو تخلّصه من بأسها.

قرر أن يخاطب عقلها الذي شجته التعاسة لعله يجد ما يمكنه ردعها عن قرارها بعقلانية ومنطق، لعله يجد جزءًا يخضع لمنطق البشر فترتدع عن فكرتها اللعينة، وترضخ لنواميس انتهجها الناس طويلًا.

قال متوخيًّا الحذر:

"ماذا ستفعلين؟"

همست سجى في برود أعصاب أدهش شاهر وأفزعه، فلم يحمل وجهها أي تعابير تفصح بأي مشاعر:

"سأقتله".

كانت الكلمة كسهم أصاب شاهر في مقتل وباغته، فقال بغية التيقُّن مما سمع للتو:

"ماذا قلتِ؟"

قالت سجى:

"كما سمعت، سأقتله.. سأريحه من ألم سيكابد ويلاته لسنين عجاف طويلة.. سأخنقه خشيةً أن تذرو الحياة متاعبها في وجهه.. سأفعل ذلك لمصلحته ليس إلا، ثم ما الجدوى من حياته؟ وما ذنبه أن يحظى بأمٍّ لا تطيق تكبد أعباء العناية به؟ صدِّقني، الموت خير له! سأقتله رأفةً به لا أكثر.. سأخلِّصه من متاعبه، فلا يضطر لمنازلة تلك الحياة التعيسة والمربكة".

صدم شاهر وصعقه كلام زوجته وبرودها الغريب إزاء كلماتها السامة.. كانت تنطقها في لامبالاة، وكأنما ترتع الكلمات في دماغها بحرية ذهابًا وإيابًا إلى أنْ اعتادت وجودها وما عادت تخيفها قط، انتفى الخوف وحل محله شرود دائم.. كانت عيناها الزائغتان ترويان الكثير؛ تشبع وجدانها بألم مرير، وقرر الانطواء والتنحي جانبًا ليلوك آلامه في صمتٍ، وترك المقود لدماغها الأرعن الذي نبتت في تربته شتلات أفكار مقذعة وضربت جذورها عميقًا،

وارتوت بمياه الحزن الكدرة لتثمر ثمارًا كريهة الطعم والرائحة، فيفوح عبقها الكريه في أنفاسٍ مُمرِضة وكلمات قاسية.

قال شاهر وقد باغتته كلماتها، فشحب وجهه وهربت منه الدماء:

"ما هذا الذي تقولينه يا سجى؟ هل جُننت؟! هل تريدين قتله بحق؟"

مر طيف ابتسامة بوجه سجى، فلم يخف على شاهر وأخافه كثيرًا، وأعجزه تفسير التبلُّد الذي اجتاح مشاعرها، أومأت برأسها، وقالت:

"أجل، فذاك خير له".

لم يخف وجعها على شاهر رغم قناع التبلُّد الذي ارتدته، قام بطلب إجازة من عمله ليراقبها خشيةً أنْ تقتل الصغير في خضم معاناتها، وبينما تصارع التيه في بيد وجدانها المقفرة، أزعجتها مراقبة شاهر لها، ولم يخف عليها قلقه المتواصل، وكلما دنا منها أمرته بالابتعاد في فظاظة لم يعهدها قائلة:

"لست مجنونة فلا تعاملني كواحدة! سئمت مراقبتك المستمرة لي!"

تنهَّد تنهيدة مطولة، ثم قال:

"ماذا تريدينني أن أفعل وقد أعلمتني بعزمك على قتل صغيرنا؟ أتريدينني أن أقف مكتوف اليدين بينما تقتلينه فلا يتبقى منه سوى جثة فاضت روحها؟ ما يسعني فعله حينها وكيف لي أن أتابع حياتي بعدما خسرت أغلى هدية وهبتني إياها الأيام؟ هل يسعني الندم وهل يكفيني ذرف الدموع إذ تحقق أسوأ مخاوفي؟"

قالت سجى بنبرة حملت تهديدًا مفجعًا:

"لن تتمكن من منعي يا شاهر، وستثبت لك الأيام أني لم أرد سوى مصلحة الصغير".

استلقت على الفراش، والتحفت الدثار مولية ظهرها لشاهر، وقد أزعجها حديثه.. استلقى شاهر إلى جوارها، واستغرق في نوم عميق، وقد نال منه الإنهاك.

استفاق شاهر على صوت صراخها المدوي، تلفت حوله فلم يجد الصبي في فراشه.. اعتراه هلع وقفز مغادرًا فراشه ليهرع إلى الخارج، وقد تمكنت منه المخاوف ولام نفسه إذ استسلم للنوم وغفل عن مراقبة سجى لبعض الوقت.

وحين خرج إلى الردهة، وجدها حاملة الصغير تصرخ في فزع هائل.. تراقب الجدران وكأنما تبصر ما يزحف عليها.. ترمقها بعينين تحملان من الرعب ما كاد يذهب لبها، جعلت تحك جلدها في هلع حتى كادت تدميه، واحتضنت الصغير بقوة بينما تصرخ:

"لن تنالوا منه! سأحميه من بطشكم مهما بلغت قوتكم".

تجمَّد شاهر في مكانه بينما يراقبها.. خذله جسده فلم يستطع تحريكه قيد أنملة، وعقد الخوف لسانه فلم يتفوه بحرفٍ، وحين أفاق من صدمته، تقدم نحوها ببطء وقال مخاطبًا إياها بحذر وتؤدة:

"ما الأمر يا سجى؟ من تقصدين؟"

أشارت إلى الجدار الخاوي قائلة:

"أولئك الأوغاد! ثمة الكثير من الحشرات التي تريد النيل من صغيري! انظر كم هي كثيرة!"

ثم واصلت حك جسدها وقد بلغ منها الخوف مبلغًا وتبدي جليا في نظراتها الحادة وعينيها الجاحظتين. قالت:

"لن أدعهم يمسونه بسوء! سأحميه مهما كلَّفني الأمر".

جعلت تتراجع، فتقدم شاهر نحوها مجددًا، وحاول تناول الصغير قائلًا:

"هات الصغير".

تراجعت بغتة وتضاعف خوفها ثم صرخت:

"لا! لن أعطيك إياه! لست سوى متواطئ معهم! لن يفلح تدبيركم الدنيء في انتزاع صغيري! أنا مَن سيحميه!"

تراجعت وقد كادت قبضتها القوية تخنق الصغير الذي جعل يصدح بالصراخ.. صرخ بها شاهر مجددًا:

"هات الصغير!"

وأثناء تراجعها ارتطمت بزهرية، وأسقطتها أرضًا لتحدث صوت تحطم مدوٍ.. لم يمنعها الحطام المتناثر من متابع التراجع، وأدمى الحطام قدميها إذ خطت عليه رغم ألم وخزه لجلدها.. لم يردعها الألم، وبلغت الشرفة أخيرًا.. خطت خارجًا وكادت تتسلق السور، بلغت الحافة وكادت تقفز حاملة صغيرها، ظنت الفرار نجدتها، وخالت نجاتها ستكون في إنهاء حياتها وحياة طفلها، ظنت الحياة غير موائمة لوجودهما؛ فهي لم تعرف منها سوى الضربات الموجعة التي كالت لها من الألم الكثير.

تبعها شاهر إلى الشرفة، وقام بإنزالها عن الحافة عنوة واقتادها إلى الداخل رغم مقاومتها المضنية، دوى صراخها المرير في أركان المنزل، ورددت الجدران صدى صرخاتها التي أفشت ألمًا عسير

الاحتمال، أنهكته مقاومتها المستميتة فضمها إلى صدره، وجعل يربِّت على ظهرها قائلًا:

"لا بأس يا سجى.. لا بأس".

قالت بصوتٍ خنقته الدموع:

"إنهم في كل مكان! الأوغاد! إنهم يريدون صغيري ولست أريد سوى حمايته.. سيقتلونه إن لم أضمن له الحماية.. دعني أرحل وآخذه معي يا شاهر، دعني أنقذه أرجوك!"

راح شاهر يمسح شعرها في حنو إلى أن استكانت بين ذراعيه بينما تردد:

"سيقتله الوغد.. سيقتله!"

أنهكها قتال أشباح مرعبة تترصدها ونامت فلم تجد الفرصة سانحة لتقص على زوجها ما يختلج في وجدانها من مخاوف مرعبة تشيب لها الرؤوس وما يمثل نصب عينيها من هلاوس مقيتة تثير ذعرها.

توسَّدت ألمها ونامت فرارًا من عالم قاسٍ ومجحف، حملها شاهر إلى الفراش، وتناول الصغير وجعل يهدهده ليسكن جأشه وينام بدوره.

أيقن شاهر أنه لابُدَّ من طلب المساعدة؛ فقد لا تنجو زوجته وصغيره في المرة المقبلة، وقد يحدث ما لا يحمد عقباه، رجا الخوف ألَّا يكون رفيقه تلك الليلة إلا أنه لازمه فلم ينم مطلقًا؛ مخافة أن يتكرر ما حدث، وتعود زوجته لقتال هواجسها، وتجلب الردى لصغيرها المسكين.

لم يتخيَّل أن حالة زوجته بهذا السوء، وأنه ثمة هلاوس بشعة تروعها، وكادت تدفعها لتورد نفسها وطفلها مورد الهلاك، أرادت حماية صغيرها إلا أنها كادت ترديه في غفلة منها، تطلع إلى زوجته بينما تستغرق في نوم عميق وتساءل عما يراودها من أفكار قاتمة وملحة، تساءل عن ألم يفجعها، ويطوق قلبها، ويبيت ملازمًا لها، فلا يفتر عنها لحظة واحدة.

أفاقت سجى لتجد زوجها إلى جوارها ساهدًا لم تغفل عيناه قط، فأضحى مثقل الأجفان وقد استحال بياض عينيه أحمر ورديًا.

انتبهت إلى غياب الطفل إذ كان فراشه خاويًا، ففزعت ونفضت الغطاء عنها، وجابت الغرفة ببصرها بحثًا عنه.

تطلعت إلى شاهر بعينين تحملان اتهامًا قاسيًا وسألته:

"أين صغيري؟"

وقبل أن يتسنى لشاهر إجابة سؤالها صرخت به بصوت يسفر عن فزع هائل:

"أين أخذته؟! أخبرني الآن!"

جعلت تذرع الغرفة جيئة وذهابًا، بينما تبحث عيناها عن طفلها المفقود، لم تفلح في إيجاده رغم محاولاتها الدؤوبة. صرخت في هلع:

"أين طفلي؟"

أمسكت بتلابيب شاهر، وقالت:

"أخبرني أين أخذته!"

نزع يديها عن قميصه وصرخ بها:

"لو أنك تمنحينني فرصة للحديث!"
حاولت تمالك أعصابها، وأفلتت قميصه، ثم أطلقت زفيرًا مطولًا، وانتظرت جوابه على أحر من جمر.. قال شاهر:
"أخذته إلى مكانٍ آمن؛ فقد كدت تقتلينه بالأمس".
تصاعد غضب سجى، واكتسى وجهها بحمرة قانية، وارتجفت أطرافها بقوةٍ ثم صرخت:
"إلى أين أخذت طفلي؟ لماذا حرمتني إياه؟ إنه بحاجةٍ إليَّ! لماذا فعلت ذلك بالطفل المسكين؟!"
قال شاهر:
"أردتُ حمايته.. ستشكرينني لاحقًا على ما فعلت".
صرخت سجى:
"بل لن أشكرك مطلقًا! أعد إليَّ طفلي!"
صرخ شاهر:
"ليس طفلك وحدك! أنا أبوه، ويجدر بي حمايته إلى أنْ تستقر حالتك!"
"حالتي مستقرة، ولا يجدر بك حرماني من طفلي!"
قال شاهر محاولًا إخضاع الحديث للمنطق:
"سجى.. لقد كدت تقفزين بالصغير من الشرفة، ألَّا يجدر بي حمايتكما بعد واقعة كتلك؟"
"لست أفهم عما تتحدث".
"لا تدعي فقدان الذاكرة، أنت تعلمين ما أقصد تمامًا.. وجود طفلك هنا يمثل خطرًا على حياتكما".

استعادت سجى ذكريات الليلة الماضية، وكيف كادت الأشباح تغتال صغيرها لدرجة أنها حاولت القفز من الشرفة؛ فرارًا به من بطش الوحوش المروعة، ثم قالت رغم كل شيء:

"لا يحق لك أن تحرمني صغيري! أنا أمه والأجدر بحمايته مما يتجهمه من أخطار".

قال شاهر:

"ليس حين تلوذين بالشرفة هربًا من هلاوس بصرية لا يبصرها سواكِ، وتكادين تعانقين الردى حاملة الصغير في غفلة عما ينتظرك من خطر محدق".

تأفَّفت ضجرًا واعتراضًا على كلامه الذي وجدته مجحفًا، أما هو فتابع:

"اسمعيني يا سجى، أنتِ لست على ما يرام، ولن تستطيعي الاعتناء به في الوقت الحالي.. يجدر بغيرك أن يتولى هذه المهمة".

صرخت:

"أتعني أنني مجنونة لا تستطيع الاعتناء بطفلها؟"

قال شاهر مستدركًا:

"لم أقل ذلك وإنما.."

قاطعته صارخة:

"قلها إذًا! لا تجمِّل كلامك، ولا تعبأ بنفسيتي المشوَّهة! لن أدعك تختطف طفلي، ولن أرضخ لحكمك الجائر.. ليتني ما تزوَّجتك بالأساس! أهذا ما ائتمنك والدي عليه؟"

صمت شاهر إذ جرت كلماتها الأخيرة ذكرى وعد قطعه لوالدها، وتساءل ما إن كان قد أحسن التصرف حين أبعد الطفل عن تصرفها.. استحال غضب سجى رجاء وتوسلًا في غمضة عين، فقالت تستجدي عطفه:

"أرجوك يا شاهر.. أعد إليَّ طفلي أرجوك! إنه بحاجتي! قد تطاله يد الأوغاد إن لم أتمكن من حمايته! ماذا سيحدث حينها؟ سيهلك بلا شك! أرجوك أعده لي ولن أكرر الأمر! سأغدو أكثر انتباها.. أعدك بذلك!"

"ليس قبل أن نزور الطبيب.. إنه من سيقرر إمكانية احتفاظك بطفلك".

أدركت سجى عدم جدوى حوارهما، وأنها لن تنتزع منه حقيقة مكان الطفل مهما ترجَّته، ومهما ألحت في طلبها.

أعرضت عنه يكلل الأسى والهزيمة خطواتها المثقلة، وجلست إلى جوار أصيص الرياحين، وتنشَّقت عبقها الذي يحمل ذكرى أمها المتوفاة، شكت للنباتات ما لحق بها من فقد وحرمان، ولامتها على تخاذلها في حماية علاقاتها، شرد عقلها في فياف قاحلة يلاحق سرابا وأوهام، توهَّمت حشرات تسير على الأسطح، وخشيت أن تؤذي الرياحين؛ فجعلت تضرب الأسطح وتهوي عليها بمضرب، فلم تختفِ الحشرات، أحست بانتقالها إلى جسدها، فجعلت تحك ذراعيها وكادت الهلاوس تذهب عقلها برمته. شعرت بخطر يتجهمها ولم تع مصدره وباتت تفاصيل المنزل غير مألوفة، وكأنما جرى استبدال أثاثه، وإعادة طلاء جدرانه، فلم يعد منزلها الذي حمل لها شعور الأمان، بل بات مخيفًا تختبئ الأشباح بين

تفاصيله، وتتربَّص بها لتزهق روحها وتسرق طفلها في غفلةٍ منها، فتَّشت عن الأمان بين أركان المنزل الغريب فلم تجد له أثرًا؛ تسارع تنفُّسها، وجعل قلبها يضرب صدرها بقوة، فشعرت بنبضاته تقرع رأسها بمطرقة، آلمها أنها ستواجه الكرب وحيدة، وأن الحياة اختزلت ألمها في أشباح وحشرات مرعبة تلاحقها ليل نهار، فلا يفطن إلى طبيعتها إنسان.

تساءلت عن سبب عدم إبصارهم لما يلاحقها وعن جدوى إقناعهم بوجوده، سكنت واقعًا مغايرًا لا مجال للإلمام بتفاصيله، وجرى استبدال الحقيقة بواقع مرٍّ مخيف، تتربص بها وحوشه، فتزيد مخاوفها وطأة.

باتت تعتنق اعتقادًا راسخًا بأن العالم يتربَّص بها الدوائر، وخرت من عل لتلعق حذاء سجانها وتقبله، ثم تتوسل إليه ليحجب عنها بأس الغيلان الجائرة.

هوت إلى الأرض تستدر البكاء لتتيح لمشاعرها الطفو إلى السطح، فلم تجب الدموع نداءها، بل لزمت البقاء قيد الكتمان، وخنقتها كما حبل مشنقة يحيط عنقها، التف الحبل مطوقًا عنقها مانعًا استحالة مشاعرها التي اكتظ بها وجدانها إلى دموع، فمنع أحرف لغة العبرات البدائية من مغادرة مدامعها، فتكدَّست، وجرى كبت مشاعرها وطمسها، لتتراكم فوق بعضها البعض، ولتجثم على صدرها جاعلة من تنفسها أمرًا عسيرًا تشتهيه، ولا تجده سانحًا.

اكتظ وجدانها بمشاعر ثقيلة، فكانت كلما حاولت التنفس، وجدت نفسها وكأنما ترفع أثقالًا رابضة فوق صدرها، لم ترأف بها الأثقال، ولم تغادر محلها بل ازدادت ثقلًا وعدوانًا.

جاء شاهر ليجدها منهمكة بحك ذراعيها بعنف حتى كادت تجرحهما.. أمسك يديها بغية إيقافها وردعها عن تمزيق ذراعيها بأظافرها وسألها:

"ماذا تفعلين؟"

قالت سجى بصوتٍ شابه الهلع:

"الحشرات! إنها في كل مكان! اجتاحت المنزل بأسره وها هي الآن تزحف على جسدي، وقد قرضتني إحداها للتو!"

تأمَّل ذراعيها، فلم يجد شيئًا قط، فقال:

"ليس ثمة شيء على ذراعيك يا سجى.. أيُّ حشرات تقصدين؟"

قالت منزعجة من تكذيبه إياها:

"بل هناك شيء! ألا تراها؟! أرى أنَّ عطبًا ما قد أصاب بصرك.. أنا أشعر بلدغاتها! بالتأكيد أشعر بها! لماذا لا تصدِّقني؟!"

أفلحت في انتزاع يديها من قبضته، وباشرت حك ذراعيها مجددًا.. حاول شاهر إيقافها مجددًا، فقال:

"توقَّفي! ستجرحين يديك على هذا النحو! توقَّفي أرجوك!"

قالت سجى مذعورة:

"ماذا أفعل وقد اجتاحت جسدي؟ أخشى أنَّ بعضها قد زحف تحت جلدي".

تابعت سجى تمزيق جلدها بقوة أكبر، فأمسك شاهر بكلتي يديها قائلًا:

"أنت تتوهمين يا سجى، لا وجود لمثل تلك الحشرات التي تزعمين رؤيتها والشعور بلدغاتها.."

صرخت سجى:
"لست واهمة! إنْ لم ترها فهي مشكلتك! أفلت يدي من فورك!"
حاولت التملُّص، فأحكم شاهر قبضته على يديها، ثم نظر في عينيها مباشرة، وقال:
"اسمعيني يا سجى.. أنتِ مريضة وتحتاجين إلى علاج".
صرخت سجى مجددًا:
"لست مريضة! وإنْ لم تلائم حالتي الصورة النمطية التي تزعم أنها تشبهني.. لست أعاني هلاوس، بل أنتَ مَن تخطئ إبصار بعض الأشياء".
قال شاهر:
"إنْ لم تقبلي بزيارة الطبيب، فسينهار البنيان الذي بذلنا جهدًا جهيدًا في تأسيسه سويًّا.. ستذهب جهودنا هدرًا، وقد يسلبنا الزمان حياتنا الرغدة، فتستحيل جحيمًا لا يطيقه إنسان.. سيذهب تعبنا أدراج الرياح إنْ لم تعترفي بأنك بحاجة للمساعدة".
تأفَّفت سجى، وقال شاهر متوسلًا:
"إن لم تفعلي هذا لأجلي، فافعليه لأجل صغيرك الذي اشتاق لأمه بلا شك".
تنهَّدت سجى ثم رنت صوب الأفق، وكأنما تنتظر الإجابة من هلاوس بصرية سادت كيانها، أرغمتها هلاوسها على رفض اقتراحه؛ فلن يكون لها مكان في دهاليز عقلها إن هي تناولت مضادًا للذهان.
اطمأنت سجى إلى نصيحة قاطني عقلها، وخشيت إغضابهم إن هي استجابت لدعوة زوجها، خشيت أنهم إن غادروها فستحفها أسوار سجن الوحدة مجددًا.

هزت رأسها نافية، وقالت:

"لن أقبل بعرضك، ولن أستمع لنصائحك الغادرة! إليك عني الآن؛ فلست بحاجةٍ لشفقتك المخزية، سأمضي في سبيلي، ولن تردعني عن بلوغ ما أودُّ الوصول إليه.. سأنقذ صغيري مهما كلَّفني الأمر، ولن أدع هذيانك بشأن الهلاوس وما ينتمي لها يعيقني عن استعادته!"

ساد الصمت قليلًا، بينما يمحص شاهر كلماتها الأخيرة، فلم يدرك مغزاها كاملًا، وجد في نفورها منه، وإعراضها عن نصحه وجبة دسمة أعجزه هضمها، ولمح أطياف تهديد خفي يختبئ خلف كلماتها المتوعدة إلا أنه لم يعِ مداه، ولم تقرع خطورته نواقيس الإنذار في ذهنه الغافل عن إدراك الحقيقة كاملة.

تابعت سجى:

"والآن أغرب عن وجهي؛ فآخر ما ينقصني هو رؤية وجهك الذي خط القلق تجاعيده في جبهته، وتتطاير سهام شفقة مقيتة من نظراته الحائرة".

أحزنته كلماتها المؤذية، ونالت من قلبه المفطور؛ فحفرت أخدودًا غائرًا في نسيجه، الذي شرع ينزف بلا توقُّف، توسَّم أن تستعيد وعيها عما قريب، أما هي فغرقت في هذيانها، ولاحقها الخوف أينما ذهبت، كان عالقًا بهواء المنزل الذي بات متخمًا بمشاعرَ سلبية، نالت منها شوارد تلك المشاعر المزعجة، وتقفت رائحة صغيرها التي حسبتها تملأ المكان.. أخرجت ثيابه من الخزانة، وجعلت تتنشقها في نهمٍ؛ عل رائحته تبلغ منخريها، وتهدهد شوقها إليه فتخمد نيرانه وتجعله يأوي إلى فراشه، ليغط في نوم عميق.

أوى شاهر إلى فراشه مُنهكًا، قد نال منه التعب الجسدي والنفسي، هوى بجسده على الفراش مُتيحًا لعضلاته أن تسترخي.. كان الهواء ملغمًا بتوترٍ وقلق، لم يتح له الاسترخاء التام إلا أنه نال بضع ساعات من النوم في نهاية المطاف.

استيقظ شاهر منتصف الليل، فلم يجد سجى إلى جواره، أخذ خوف خفي يدغدغ عقله، فيبعث فيه يقينًا بأن خطبًا سيئًا قد وقع، ودَّ لو يكذب حدسه، فنهض ليبحث عن سجى في أرجاء البيت هاتفًا باسمها مرارًا دون أنْ يتلقَّى جوابا قط.

رددت جدران المنزل نداءاته، وتعذَّر عليها إيجاد مَن يلبي النداء المُكرَّر.

جعل قلب شاهر يخفق بعنفٍ، وانهمر العرق الغزير من جبينه إذ كاد الهلع الشديد يفتك به، وأخيرًا وجد ورقة مطوية موضوعة على طاولة الطعام، فضها من فوره، وباشر قراءة ما كتب فيها بخطٍ مرتجف وأنامل مرتعشة:

"سأذهب للبحث عن طفلي.. سأعود فور إيجادي إياه".

جحظت عيناه ما إن أدرك فداحة ما حصل.. عقدت الصدمة لسانه، وجعلته يتجمَّد في مكانه عاجزًا عن الحراك، لام نفسه إذ لم يلقِ لتهديدها الصريح بالًا، ونام غافلًا عنه تاركًا إياها لتتبع ما يمليه عليها دماغها، ولتقتفي آثار هلاوسها، فلا تعصي لها أمرًا.

ارتدى ثيابه بينما يرتجف جسده بقوةٍ ويلهث عاجزًا عن التنفس بشكل سليم، إذ تلاحقت أنفاسه واضطربت، ساد الخوف وجدانه، وتجلت هواجس مزعجة صوب ناظريه عما حل

بزوجته.. خشي أن يخسرها إلى الأبد ما إن يزلزل اضطرابها أركان منزلهم، ويقوض جدرانه.

انتعل حذاءه سريعًا، وخرج إلى الشارع لا يعرف إلى أين يتجه، كان الجو قارس البرودة، وتنامت في خلده مخاوف مروعة بشأن زوجته، حاول طمأنة نفسه إلى أنها لم تبتعد كثيرًا، وأن إيجادها لن يكون بالأمر الصعب، ثم لعن أعمدة الإنارة الخافتة التي جعلت مهمته أكثر صعوبةٍ؛ كان إبصار محيطه عسيرًا إلا أنه لم يكن ليتراجع؛ فكيف له أن يذر سجى لتتخبطها الرياح الهائجة، وليخترق الصقيع عظامها؟

وكيف يتركها وقد خرجت لا تلوي على شيء بل تتبع خيطًا مجهولًا وما أوحت لها به هلاوسها؟

فهي لا تدري أين يكون طفلها، وتجهل الطريق إليه، لم يدر ما إن كان قد أخطأ حين أبعد طفلها عنها، وأفضى تساؤله إلى عتابٍ مرير.

عاتب نفسه إذ زاد نيران شوقها إليه سعيرًا، ولم يفلح في إقناعها بتلقِّي العلاج، طفت تلك الأفكار واخترقت مجال رؤيته، فجعلته ضبابيًا قاتمًا، لم يتخلَّ عن عزمه، وواصل البحث في الشوارع المجاورة لمنزلهم وفي فناء المباني، إذ لربما قررت الاحتماء بأحدهم من بطش الريح العاصفة.

تملَّكه التعب، وشعر أنه يبحث عن إبرة صغيرة بكومةِ قش.. لم يجد دليلًا يقوده إلى أين يجدر به الذهاب، ولم يجد مَن يمكنه سؤاله عن زوجته فيرشده إلى خيط يقوده إليها، وأخيرًا سلك الطريق عائدًا إلى بيته خائبَ الرجاء؛ فقد أحبط الظلام الدامس

مبتغاه، وعزم على معاودة البحث ما إن ينشر الضوء أولى خيوطه في السماء.

أما سجى فقد هربت من المنزل تجوب الشوارع بحثًا عن صغيرها.. أوحت لها أفكارها بأن كليهما في خطر، ودفعتها إلى الفرار إلى مكان قد يحمل لهما أمانًا نسبيًّا، عزمت على إيجاده مهما كلَّفها الأمر، وإن استدعى الأمر بأن تقتفي صوت بكائه الذي لا ينقطع ولا يبرح أذنيها قط. ستنقذه، ولن يكون عليه تكبُّد آلام الحياة ومشاقها؛ فسيرحل كلاهما إلى مكانٍ آمن لا تكدر صفوه مشقة قط، سيكف عن البكاء، وسيستكين بين ذراعيها الحانيين.

باشر الودق الانهمار من غيوم مُلبَّدة تراكمت، فعكرَّت صفو السماء.. اشتد المطر شيئًا فشيئًا، وتسارعت وتيرته، فشعرت بقطراته تلامس يديها المرتجفتين، وابتلت ثيابها كليًّا بفعل زخاته المتتابعة.

حاولت اتخاذ مخبأ قد يقيها الابتلال، فاحتمت بفناء إحدى البنايات إلا أن الماء المنهمر كان قد غمر ثيابها بالفعل، شرعت ترتجف بردًا بينما تجلس في ركنٍ منزو حائرة فيما ستصنع حيال صغيرها الذي لم تهتدِ لمكانه بعد، وحيال أفكار تؤزها أزًّا، وتدفعها لمواصلة البحث غير عابئة بالمطر الغزير.

روعتها فكرة أنه بحاجةٍ إليها، ونازعها غضب إذ انتزعه شاهر من بين ذراعيها.

عاد شاهر إلى بيته، وأوى إلى فراشه، وقد تمكَّن منه التعب، وارتأى أن يغفو لبعض الوقت قبل أن يعاود البحث، استلقى على الفراش ليحاول النوم، إلا أن جفونه أبت الإغماض رغم ثقلها.. كانت صورة

سجى المضطربة تتراءى له كلما أغمض عينيه، فبات النوم مطلبًا عزيزَ المنال.

خشي أن تؤذي نفسها في خضم اضطرابها، أو أن ترحل عن حياته إلى الأبد، لم يستطع إلا أن ينهض من فراشه، فيعيد ارتداء ثيابه عازمًا على معاودة البحث، وجد قدميه خائرتين عاجزتين عن حمل جسده، فجلس على فراشه ودفن وجهه بين كفيه ثم انفجر في نشيجٍ مرير، جعل يرثي أيامهم الهانئة التي باتت عودتها محل شك وتساؤل، جعل يتساءل عن جدوى تصرفه إذ أبعد الصغير عن ساحة العراك، وانتزعه من حضن أمه التي كادت تقتله فرارًا من أشباحها وما تشكّله من خطر، جعل يفكّر هل أخلف وعده لوالدها.. جابت تلك التساؤلات نواحي عقله الذي أضرم القلق فيه نيرانه.

تساءل عما يتوجَّب عليه فعله الآن بينما يغطي الظلام المدينة، وتستحيل الرؤية في كنفه، هل يطيع مشاعره، ويغادر من فوره ليتابع البحث؟ أم يعصيها وينتظر حتى ينبلج الصبح كما يملي عليه المنطق؟ شعر وكأنما وقع في شراك مشاعر مزعجة تلح عليه ليصغي لما تمليه عليه؛ فسجى تكابد انهمار المطر بلا شكٍ في مكانٍ ما، بالتأكيد تشعر بالبرد، وربما الجوع والخوف أيضًا.. فمَن سواه ينتشلها من الهلاك الذي ألقت بنفسها في شباكه؟ إنه حاميها وملاكها الحارس، ويجدر به أنْ يكون على قدر التكليف.

انتظر طلوع الصبح على أحر من جمر، وتقدَّمت مشاعره بشكواها وافتراءاتها تدين تصرفه ذاك، إلا أنه أدرك أن بحثه عنها في ظلمات مطبقة لن يجدي نفعًا.

خرج فور ظهور أولى خيوط النهار، ولم يغمض له جفنٌ قط.. بدأ بالبحث في أفنية البنايات المجاورة، وباشر سؤال حارسي العقارات عما إذا كانوا قد رأوا مَن تحمل مواصفاتها، فسرد لهم ما قد يعينهم على تمييزها، لم يهتدِ إلى معلومةٍ ذات نفع في إدلاءاتهم التي وجدها تارة مضللة تستند إلى الخيال، وتارة تفتقر إلى المنفعة، وأخيرًا مرَّ ببناية فسمع صوت أنين قادمًا من فنائها شابه صوت سجى كثيرًا، هرع إلى داخل البناية وقد نازعه أمل بأنه سيجدها.. وحين دلف إلى الداخل، وجد امرأة قد تكورت على نفسها، وضمت ركبتيها إلى صدرها وجعلت ترتجف، وتئن بصوت مسموع، وجدها وقد ارتدت ثياب زوجته نفسها، فتقدم نحوها وحاول أن يفك عقدها المحكم لذراعيها، وأن يسند ظهرها إلى الخلف، فوجد في ذلك صعوبة بالغة، وأبدت المرأة مقاومة هائلة، وازداد أنينها قوة وبأسًا.

قال شاهر بصوتٍ أبقاه خفيضًا؛ كي لا يفزعها، ومسموعًا ليظلَّ قادرًا على اختراق أنينها في الآن نفسه:

"سجى!"

فزعت رغم كل شيء، وتطلَّعت إليه بعينين مذعورتين حمراوين، وبوجنتين ترتجفان بردًا وذعرًا؛ كان الخوف جليًّا في نظراتها المُتعبة والحذرة، وشابت زرقة عابرة وجهها الشاحب والبارد.

أمسك شاهر يديها المرتجفتين، فوجدهما باردتين كما برود الثلج قد كادتا تتصلبان في موضعهما من شدة الصقيع، بالكاد تعرَّف على زوجته من ثيابها، أما عن شكلها فقد تبدَّل كثيرًا.. ذهب لون وجهها مع الصقيع، واحمرت عيناها كأن لم تذق طعم النوم لأيام مضت،

ولطخ الوحل ثيابها كذلك، حاولت التفوه بما تريده فرتَّبت كلمات انتزعتها من حصيلة مفرداتها عنوة:

"أريد طفلي!"

قالتها باكية، فخرجت الكلمات مبعثرة الأحرف بالكاد أمكن تمييزها بين نشيج مرير.. جعلت ترددها عازمة على الإفصاح عن مقصدها بوضوح.

فطن شاهر إلى ما تريد، ضمها إلى صدره وهو لا يزال يكذِّب حقيقة أنه وجدها.. لم تكف عن ترديد العبارة بين أحضانه، ستظل تصدح بحقيقة ما تريد مهما كلَّفها الأمر.

قال شاهر:

"لنعد إلى المنزل، وهناك نناقش كل شيء".

قالت بصوتٍ يشبه صوت ثمل يتكلَّم:

"ليس قبل أنْ تعيد إليَّ طفلي".

قال شاهر يريد كسب الوقت:

"سآخذك إليه، ولكن لنعد إلى البيت الآن".

رمقته بنظرات حذرة ورافقته، وقد تحلَّت بأملٍ يشوبه الكثير من الحذر.

أمسك يدها، وانطلقا عائدين إلى البيت بينما ينازع سجى هاجس بأنه سيخلف وعده، وتتمنى لو تعود أدراجها، فتتابع البحث منفردة.

توقَّفت في منتصف الطريق، فتوقَّف شاهر وسألها:

"ما الأمر؟ ما بك توقفت؟"

"هل ستأخذني إلى صغيري؟"
"أجل يا سجى، ولكننا سنعود إلى المنزل أولًا.. سنتناول وجبة؛ فلا شك أنك جائعة، ثم سآخذك لترينه.. هذا وعد مني".
ترددت، ولم تبرح مكانها، فقال:
"لا تخافي يا سجى، ثقي بأني لن أخلف وعدي لكِ".
"لست جائعة يا شاهر، خذني إليه الآن!"
"لا بأس يا سجى، ألا تثقين بي؟"
نظرت إليه وعيناها تملأها الريبة.. لم تستطع أن تضع ثقتها بمن انتزع صغيرها في غفلة منها، ولكنها رافقته إلى المنزل، وكل هواجسها تنهاها عن فعلتها تلك.
دخلت إلى البيت وتبعها شاهر.
قال مُرحِّبا بها:
"عودًا حميدًا يا عزيزتي سجى".
تكلَّفت نصف ابتسامة، وتابع شاهر:
"سأُعِّد لكِ وجبةً دافئة ريثما تبدِّلين ثيابك".
بدَّلت سجى ثيابها، وتعلَّق نظرها بأثاث المنزل الذي شهد نزالها مع مخاوفها، والذي انتهى بمحاولتها القفز من الشرفة فرارًا من وحوش تتجهمها ونجاة بصغيرها الذي باتت تجهل عنه كل شيء الآن.
تجمَّعت الدموع في مقلتيها، وتساءلت هل أخطأت بحقه؟ إنها لم ترد له سوى النجاة، حاولت نجدته، فظن زوجها بها الظنون

واختطف الصغير، فلم يخبرها أين أخفاه.. ترى، كيف هي حالته الآن؟ لا شك أنه يشتاق إليها مثلما تشتاق إليه.

يكاد الشوق يقتلها.. يكاد يزهق روحها بين زفرات تنفث بها ألمها المتفاقم.

أعد لها شاهر وجبة لذيذة، وجلست تطالعها بعينين حائرتين.. كانت جائعة إلا أن خوفها على طفلها فاق كل شعور بالجوع لديها، ووجدت في تصرفها إن هي تناولت طعامًا سيُعد خذلانًا لصغيرها إذ تركت البحث عنه، وركنت للدعة والخضوع.

قال شاهر مُشجِّعًا إياها على تناول الطعام:

"صنعت لكِ طعامًا لذيذًا، تناوليه لتستعيدي طاقتك".

قالت ولم تجد سوى التوسُّل ملاذًا:

"أرجوك يا شاهر، دعني أرى صغيري! دعني أتنسَّم أنفاسه لمرة واحدة بعد!"

تنهَّد شاهر وقال:

"أعدك بأن أفعل ذلك، ولكن أرجوك أن تتناولي طعامك؛ فلم تأكلي شيئًا مُنذُ البارحة".

دفعت سجى الصحن بعيدًا وصرخت:

"لن أتناول شيئًا، اصحبني إلى صغيري من فورك!"

ثم عادت للتوسُّل مجددًا:

"أرجوك دلني أين يكون.. سأذهب بمفردي، ولكن أخبرني مكانه!"

قال شاهر محاولًا الإبقاء على هدوئه:

"سنذهب سويًّا يا سجى.. أعدك بأن نجتمع مجددًا"

مسح دموعها، وربَّت على كتفها بغية طمأنتها..
"سآخذك إليه؛ فلا تخافي".
أومأت سجى برأسها، وقد هدهدت كلماته خوفًا يزأر في نفسها قد اتخذها ساحة للعراك، كفت أمواج بحر هادر من مشاعر جياشة عن التلاطم بنفسها المضطربة، وسكن هديره فلم يعد مزعجًا.
باشرت تناول الطعام فكم كانت جائعة!
شرعت تدس اللقم في فمها وتحشرها حشرًا، ثم تزدردها دون مضغٍ كافٍ، ارتقت سلم الأمل، ولم تعبأ بمخاوف تجرُّها إلى الأسفل، وتستجديها لتكف عن ارتقاء سلم أمل مزعوم سينجم عنه سقوط حر سيؤذيها كثيرًا.
لم تصغِ لمخاوفها بل تحلَّت بثقة عمياء تجاه وعد زوجها الذي كرره مرارًا، نامت سجى فور انتهائها من تناول الطعام وجاء شاهر إلى الغرفة ليسبل عليها الغطاء ويبتسم إذ أفلح في العثور عليها، ولم يتحقق أسوأ مخاوفه.. عانقت ابتسامته حزنًا دفينًا كبَّله في أعماقه خشية صعوده إلى السطح، خشي أنه لن يسقي شتلات حبه لها سوى الخذلان، ووقع بين المطرقة والسندان؛ فهل سيغلب حبه لها وخشيته إيذاء مشاعرها أم حبه لصغيره وتوجسه من أن تؤذيه في إحدى نوباتها؟ تمتم شاهر بصوتٍ خافت:
"آسف يا عزيزتي؛ فما باليد حيلة".
استلقى إلى جوارها، وقد آن للنوم أن يزور جفنيه المتعبين..
استيقظ شاهر في ساعة متأخرة من الليل فور سماعه تحطم إناء ما.. خرج إلى الردهة فزعًا، ليجد سجى وقد حطمت كثيرًا من الآنية الفارغة، وقد كان الأخير أكبرها.

بدا عليها الخوف الشديد، وقد أمسكت بذراع المكنسة تتوعَّد شخصًا أو ربما شبحًا غير مرئي بالنسبة له، جعلت تلوح بالمكنسة في الهواء، وطالت المكنسة آنية فارغة لتهوي إلى الأرض محطمة، وتتناثر أجزاؤها على الأرضية الخشبية.

لم تعبأ سجى بجراح قدميها إثر دهسها القطع المتناثرة؛ إذ بلغ خوفها من القوة ما جعلها تهمل ما سواه.

قال شاهر:

"ماذا تفعلين يا سجى؟"

فزعت فور سماعها صوته، ووجَّهت عصا المكنسة صوبه حتى كادت تهوي بها على رأسه، تفادى شاهر العصا في الوقت المناسب، أما سجى فتراجعت إلى الخلف، وجحظت عيناها، وارتجفت أوصالها، وتصبَّب العرق الغزير من جبينها، وشحب وجهها إذ استعبدتها مخاوفها القاتلة.

لم تدرِ إلى أين تقصد، وأنَّى لها الفرار من أصوات وأشباح تتعقبها وتجرها إلى واقع مواز أضحى الرعب عنوانه.

صرخ شاهر:

"انتبهي!"

تعثرت سجى بإحدى قطع الأثاث بينما تعود القهقري، وصاحت ألمًا فهرع زوجها إليها، وحاول مساعدتها لتعاود الوقوف؛ فتملَّصت منه إذ خشيته بدوره وخالته وحشًا اختطف صغيرها في غفلة منها.

صرخت:

"ابتعد عني!"

دفعته فارتد إلى الخلف.. جلب ضمادًا ليضمِّد جراح قدميها النازفتين.

لم تسمح له بالاقتراب بل توخت حذرًا شديدًا أضناه، فلم يعرف ما يصنع.

اتصل بالإسعاف ليأخذها إلى المشفى.. وحين وصلت سيارة الإسعاف، أتى المسعفون ليحملوها إذ لربما كسرت ساقها وقتما سقطت.

اقتربوا منها فخالجها التوتر، وأبت الامتثال لأمرهم، ودفعتهم بعيدًا خشيةً أن يأخذوها مرغمة.

خطرت فكرة ببال شاهر لتليِّن شوكتها فنفذها من فوره.. أخبرها:

"سنذهب لرؤية صغيرك، ما رأيك؟"

رمقته بنظرات يساورها الشك، لم تعلم أتصدِّقه أم تكذِّبه، وخالجها شعور بأنه يكذب إلا أنها لم تكن لتفوت الفرصة فلربما كان صادقًا.

سألته:

"أحقًا؟"

قال شاهر:

"أجل، سنذهب من فورنا".

عانقت أملًا ضئيلًا، واستغل شاهر سذاجتها ليصحبها إلى المشفى.

اختارت الرضوخ لأوامر المسعفين أخيرًا، فأمسكوا بها واصطحبوها خارجًا، وحين بلغوا سيارة الإسعاف تساءلت:

"لماذا ينبغي عليَّ ركوب سيارة الإسعاف؟"

قال شاهر:

"سنضمِّد جراح قدميك في المشفى فحسب، ثم سآخذك إلى صغيرك".

توجَّست سجى من كلامه إلا أنها تبعته للنهاية.

وفي المشفى، تم تضميد جراح قدمها.. وما إن رغبت بالمغادرة حتى أخبرها الطبيب:

"ستمكثين بالقسم النفسي لمزيد من الوقت؛ فحالتك غير مستقرة ولا يمكنك المغادرة على هذا النحو".

نظرت إلى شاهر، وقد أفجعها غدره وإخلافه لوعده وخداعه لها.. فقالت باكية:

"لماذا يا شاهر؟ لماذا خدعتني؟ لست مجنونة لأمكث هنا! أخبرهم أني لست مجنونة! ثم إني أريد رؤية صغيري.. أريد رؤيته في الحال!"

قال شاهر محاولًا التهدئة من روعها:

"لا عليك يا سجى.. ستمكثين هنا لبعض الوقت فحسب، لن يطول مكوثك، هنا وسرعان ما سيجتمع ثلاثتنا.. ستمكثين حتى تتحسنين وسآتي لاصطحابك حينها".

صرخت تستجديه:

"لا تتركني يا شاهر! لا تتركني أرجوك".

استدار شاهر ليرحل تاركًا سجى، لتغرق في هواجسها، ولتلزم صراخًا بح صوتها من جرائه.. جعلت تصرخ وتنوح:

"لماذا خدعتني يا شاهر؟ أهكذا تنفذ وصية والدي؟ لماذا تركتني هنا ورحلت؟"

فتَّشت حولها عن وجهه المألوف بالنسبة لها فلم تجد سوى وجوها غير مألوفة تذكي نيران فزعها.

استمر نواحها لأمد غير هين.. ذرفت كثيرًا من الدموع التي أحرقت وجنتيها إذ تعرَّضت للخداع من قِبَل رفيق دربها الذي استأمنه والدها على حياتها.

تساءلت لما فعل بها هذا.. لطالما راهنت على وفائه وإخلاصه، فمتى تبدَّل كل ذلك؟! سألت الطبيب:

"أين شاهر؟ أريد رؤيته".

تشبَّثت بوجه زوجها المألوف، ولم ترد له أن يفارق مخيلتها، بل ودَّت لو تلوذ به وسط الوجوه الكثيرة الغريبة والمتعاقبة.

شعرت بالخوف وودت لو تحتمي به من أخطار تتجهمها ومحيط غريب شديد الاكفهرار.

إلى مَن تلجأ وقد فارقها من عدتهم حصنها الذي لا يمكن تقويضه أبدًا؟ ها قد تحقق أسوأ كوابيسها فغدت وحيدة لا يؤنس وحدتها جليس.

قال الطبيب بنبرةٍ تحمل الكثير من الجفاء:

"لقد غادر.. ستتسنى لكِ رؤيته عما قريب"

تابعت النواح حتى بح صوتها، واستسلمت أخيرًا لمصير مجحف لم تتكهن ببلوغه في أحلك الظروف.

غادر شاهر المشفى بعينين دامعتين تاركًا رفيقة عمره وأنيسته خلفه متسائلًا ما إن كان قد فعل الصواب، غادرها حائرا فيما سيصنع، وكيف سيمضي أيامه دون وجودها إلى جواره، عاد إلى المنزل وهوى إلى مقعد وثير.. تمنَّى ألَّا يكون قد خسر حبيبته إلى الأبد، إذ أودعها ذاك المشفى، لا شك أنها غاضبة الآن، ولا شك أنها تلعن اليوم الذي قُدِّر لها فيه لقاؤه.

تذكَّر لحظات طيبة جمعتهما، تذكَّر أيام لقائهما الأولى، وكيف حفتها السعادة الخالصة، تذكَّر كيف جمعهما الحب في بيت واحد، وكيف استعرت شرارته بداية، تذكَّر كم بلغ به التردد حتى قرر مصارحتها بحبه، وكم فتنته ابتسامتها الرائعة حتى جلجلت أجراس العشق بذهنه بعدما سلبه الحب لبه كاملًا، ابتسم حين صافح عقله تلك الذكريات، وصاحبت ابتسامته دموع حارقة تكفلت بإحراق وجنتيه.

أوى إلى فراشه هربًا من فيح الذكريات.. توسَّد الألم، وراح يغط في نومٍ خالجته كوابيس مزعجة؛ خشي أن يفقد زوجته، ولم يبرح الخوف ذهنه الذي راح ينسج أفكارًا وأوهامًا شتى، منبعها ألمه الذي عزف مقطوعة حزينة ذات ألحان قاتمة على أوتار الكآبة الصدئة، لم يعِ ما توجَّب عليه فعله إلا أنه لم يكن ليذرها لأوهامها تتجهمها، ولم يكن ليتركها تتخبط بين رحى تعاستها، وتشقيها أفكارها البائسة.

استيقظ شاهر قبيل الفجر عقب نوم لم ينل منه سوى الكوابيس المزعجة، تقدَّم نحو أصيص الرياحين، وجعل يتأمل الأوراق التي عكفت سجى على الاهتمام بها، لامس الأوراق الخضراء وذرف دموع الأسى إذ ذاق مرارة فقدان حبيبته وسلوى أيامه، تأفَّف من

اضطراره للاستمرار بمضمار الحياة، وتمنَّى لو استطاع مغادرته والتنحي جانبًا.. تمنَّى لو يبرحه برهة فيلتقط أنفاسه عوضًا عن اللهاث المستمر.

وفي غضون ساعات قليلة، قصد شاهر الشركة، ودلف إلى مكتبه في صمتٍ، لم يرغب بتلقِّي الأسئلة التي تستفسر عن غياب زوجته، اعتاد تلقِّيها في الأيام الماضية إذ انتهت فترة إجازتها ولم تعد بعد، إلا أنه اليوم لم يعد قادرًا على الإجابة عنها، ولا على خلق المبررات الواهية التي لم تعد تقنع زملاءه وصاروا يحيكون السيناريوهات، ويختلقون المبررات لأنفسهم، طرقت وئام باب مكتبه، فدعاها للدخول، وما إن دخلت حتى توقَّع سؤالها:

"كيف حال سجى؟"

أجاب باقتضاب:

"إنها بخيرٍ".

استهجنت وئام إجابته المقتضبة وهيئته المزرية إذ بدت عيناه حمراوين لذرفه الدموع ليومين متتاليين، وبدا هندامه مهملًا.

قالت:

"ما بالك يا شاهر؟ هل أصابكما مكروه؟"

قال شاهر كارهًا إلحاحها:

"نحن بخير حال، شكرًا لكِ".

جلبت وئام كرسيَّ، وجلست على مقربةٍ منه قائلة:

"لست أصدِّق ذلك؛ فأنا أعرفك جيدًا يا شاهر.. لست تحسن إخفاء الدموع التي تجمعت في مقلتيك، ولست تتقن إخفاء مشاعر

حزن تعصف بوجدانك، وتترك أثرها جليًّا في تعابير وجهك. أخبرني ما الأمر"

قال شاهر:

"لا شيء.. كل ما في الأمر أنني.."

خنقته العبرات، وجعل يمسح ما فرَّ منها من مقلتيه.

قالت وئام:

"هل تبكي يا شاهر؟ أخبرني ماذا جرى".

قال شاهر وقد أفلتت الأمور من سيطرته واضطر للإدلاء بالحقيقة كاملة عل مشاطرة أحدهم الحقيقة تريحه من عبء أثقل وجدانه:

"اضطررت لإيداعها المشفى النفسي".

ذهلت وئام وسألته:

"المشفى النفسي؟ لم فعلت ذلك؟"

قال شاهر:

"كادت تؤذي نفسها، ولمحت إلى إيذاء طفلها كذلك.. لم أهتد إلى حل سواه، خشيت أن تلحق الأذى بنفسها وبصغيرها فيحدث ما لا يُحمَد عقباه!"

لزمت وئام الصمت بينما روى لها شاهر الحوادث التي وقعت في الفترة الأخيرة، وتفكير سجى الضبابي، وتصرفاتها الخطيرة والمباغتة، وحدِّيثها عن تخليص طفلها من حياة امتلأت بالمعاناة، أفزع حديثه وئام، وفطنت إلى الدوافع التي أرغمته على اتخاذ ذلك القرار.

قالت:
"وماذا ستفعل الآن؟ لا بُدَّ أنها غاضبة تجاهك".
قال شاهر:
"أعلم ذلك، ولكني آمل أن تفسر لها الأيام سبب تصرفي".
قالت وئام وكأنما تذكَّرت خطبًا ما:
"وماذا عن الطفل؟ ماذا ستفعل بشأنه؟ إنه بحاجةٍ لأمه"

قال شاهر واجمًا:
"فكرت بهذا الأمر، ولم أهتدِ لحل سوى أن أستودع أمي إياه؛ فهي خير مَن يرعاه في غياب سجى".
قالت وئام:
"حسنًا فعلت".
بدا شاهر واجمًا، وقد كبَّلته الهموم، فما عاد قادرًا على التفكير السليم.
قالت وئام حين بلغها ألمه المهول، وتناهت إلى مسمعها صيحات غريق يستجدي الناس لينقذوه:
"لا عليك يا شاهر، لن يدوم الأمر طويلًا.. سرعان ما ستجتمعا، وستشكر لكَ جميل صنعك".
قال شاهر وقد سطع نجم في سمائه المعتمة إذ أدرك أنها قد تشكر له معروفه:
"هل تعتقدين ذلك؟ أخشى أن تلومني إذ خدعتها".

قالت وئام:

"وهل فعلت؟"

أطرق شاهر ثم أومأ برأسه وقال:

"لقد أقنعتها أنها ذاهبة لرؤية طفلها حين اقتدتها إلى المشفى".

تنهَّدت وئام، ثم قالت:

"فلنأمل أن تغفر لك كذبة، لم تقصد بها سوى مصلحتها في نهاية المطاف".

غادرت وئام الغرفة تاركة شاهر ليغرق في هواجسه؛ خشي ألَّا تسامحه زوجته.. خشي أن يكون قد خسر ثقتها للأبد.

حدَّقت سجى بجدران بيضاء تحيطها من كل جانب، وقد سجنتها أفكارها المعتمة بمكانٍ غير مألوف؛ غرفة ضيقة حسبت جدرانها تنهار لتحطمها إلى أشلاء، نازعت الغرق ببحر أفكارها اللجي، وجرفتها أمواجه إلى شاطئ صخري تعس ذي رمال داكنة تسطع في سمائه شمس ذات بريق كاذب يضيء سماء أتخمتها غيوم كثيفة من مشاعر قاسية، مزجت الغيوم صفو السماء فصارت كدرة غائمة لا تكاد تتبيَّن زرقتها.

بدت رمادية باهتة، ولم تفلح أشعة الشمس في النفاذ إلى الأرض إذ حجبتها الغيوم، تفتق عقلها عن أفكار موبقة، ونزعت الأفكار القاتمة رداءها على جسدها الواهن.

استعاد المد جسدها إلى البحر مجددًا، ودلف الماء المالح إلى فمها، وباتت تصارع الأمواج وحيدة في غرفتها ذات النوافذ المُسيَّجة، والجدران الإسمنتية القاسية.

لم تلج سجنًا قاسيًا كهذا سوى سجن أفكارها المعتم، ولَّد السجن لديها شعورًا مريرًا بالوحدة، وآلمها خداع زوجها لها، لم تعد تثق بإنسان مهما كان قريبًا.. تشكَّلت صورة نصب عينيها حملت ذكرى أيام قضتها برفقة والديها، لاحقت الصورة بعينيها في دأب، ولم ترضخ لفكرة وشت بانتهاء تلك الأيام.

محقت الفكرة وتركت الفراش لتتبع الصورة، وفيها فتحت أمها ذراعيها لتضمها إلى صدرها، وقد علت وجهها ابتسامة رائعة، تقدَّمت نحو طيف أمها الآخذ في الابتعاد لتبلغ حضنها الذي اشتاقت إليه.

قالت:

"لماذا تبتعدين؟"

استجدتها لتبقى قائلة:

"لا ترحلي يا أمي".

وأخيرًا ارتطمت بالجدار، واختفت الصورة كليًّا.. غابت الصورة وبقي الألم، احتدم الشجار بين ألم ارتطامها بالجدار وألم الفقد، تفوَّق ألم الفقد على نظيره، واندلع لهيبه ليرتفع ويحرق وجدانها وجسدها في الآن نفسه.

بكت فلم تذر دموعًا في مآقيها ولم تخش نضوبها أبدًا.

اغتال الحزن كيانها ودس خنجره المسموم في جسدها الذي يتوق للراحة، اجتاحها ألم أنزله بها وحش لا يعرف الرأفة وطوق عنقها ليرديها اختناقًا، تعاقبت صوب ناظريها فصول حياتها الشبيهة بمسرحية تعيسة؛ آلمها فقدان ذويها، وخداع زوجها، وتحرُّش مديرها.

لم تجنِ من الحياة سوى قطوف ذابلة وثمار فاسدة، لم تقطف من بستانها سوى رديء الثمار وتلطخ وجدانها بدماء أمل جرى ذبحه كما كبش بدم بارد في ساحة شاسعة أمام محكمة هزلية، كان الاكتئاب قاضيها الظالم والمخضرم، لم يشفع للأمل حسن صنيعه بل كانت تلك تهمته الدامغة، انتهى أمر الأمل وجرى دفنه صبيحة اليوم الذي أعقب المحاكمة الظالمة فلا استئناف ينفعه ولا محامٍ يخفف عقوبته المُشدَّدة، أعدم على مرأى ومسمع من الجميع، فلم يملك أيهم دفع الأذى عنه وإنقاذه من مصير ظالم محتم.

راقبت سجى استحالة الجدران إلى خنادق شاسعة وعميقة.. ودت لو تقطعها فرارا إلى المجهول علها تجد منفذًا إلى عالمٍ ما، فتلاحق الأمل الذي جرى دفنه في العالم الذي تعرفه؛ علها تجد له مثيلًا في عالم مغاير، ارتطمت بالجدار مرارًا، فلم ترتدع بل كبَّلتها هلاوسها إلى سياج عالم مغاير، فانطلقت تقتفي أثر أفكارها المظلمة وتميط الدثار عن هواجس تلاحقها، فتُغرِق عقلها بظنون مجحفة.

تبعتها الأشباح إلى غرفتها الضيقة ومثلت أمامها كظلال داكنة، أفزعتها الأشباح فلم تجد بُدًّا من قتالها، لم تملك ما يمكنها التسلُّح به، وباتت مُعرَّضة للهجوم بين الفنية والأخرى.

صدحت الأشباح بأصوات غليظة ومخيفة، فأطلقت سجى صرخاتٍ حادة في خضم ذعرها وتخاذلها المؤسف، هرعت ممرضتان إلى الغرفة، وسرعان ما جرى تكبيل المريضة؛ إذ كادت تؤذي نفسها في نوبتها تلك.

انساب خيط دم من أنفها إذ رطمت رأسها بالجدار.. وأخيرًا حقنت إحدى الممرضات المريضة بمادة منومة، لتغط في نوم عميق.

ذاب محيطها في ظلمة جعلت تزداد شيئًا فشيئًا إلى أنْ ابتلعت واقعها بأكمله؛ ازدردت الظلمة شتى تفاصيله من غرفة ضيقة، وأشباح مرعبة، ونافذة مُسيَّجة، وجدران مُصمَتة تستحيل أخاديد شاسعة ظلماء من آنٍ لآخرَ.. ذاب كل ذلك، وانتفى إدراكها لأسرار ذلك العالم دقها وجلها وتفاصيله المخيفة التي لا تكف عن اجتياح وجدانها الذي ساده الصمت للمرة الأولى مُنذ أمدٍ طويل.

آن لها أن ترتاح من قسوة عالم لا يكف عن إطلاق أشباحه من مكمنها لتزرع في نفسها الخوف.

قصد شاهر قبر والد سجى عقب انتهاء الدوام، ووقف قبالته يستعيد كلمات الفقيد التي حفرت في ذاكرته، وحفظها عن ظهر قلب.

أطرق طويلًا وكأنما كان خَجِلًا من فعلته، لم يعتقد بأن سجى ستغفر له ما فعل بل اعتقد أن غضبها المتصاعد إزاءه سيفتك بعلاقتهما فتؤول إلى زوالٍ.

اعتقد شاهر أن خطأه غير هين إلا أن هدفه كان إنقاذ زوجته وطفله مهما بدا الثمن فادحًا. استقبل القبر وجعل يردد:

"سامحني أرجوك؛ فلم أقصد خرق وصيتك".

ثم قال:

"لم أرد سوى إنقاذهما إذ تجهمهما خطر محدق.. حاولت أن أظل بقربهما لأحميهما إلا أن بقائي إلى جوارهما لم يعد كافيًا، كانت تستغل غفوتي لتطيع هلاوسها، فيتعرَّض كلاهما لخطرٍ كبير".

صمت قليلًا ثم خنقته العبرات، بينما قال:

"أردتُ أن أصونها فحسب، ولكني خدعتها.. ويظل الكذب كذبًا مهما حاول أحدهم تجميله".

انخرط في بكاءٍ ونحيب، ثم تابع:

"خدعتها وليتني صدقتها القول! أتغفر خطأي الفادح؟! أتسامحني وقد اقترفت جرمًا بإبعادها عن طفلها؟!"

سكت قليلًا، ثم استدرك:

"ولكني لم أبعدها عنه إلا لأحميهما! لقد كادت هلاوسها تفتك بكليهما!"

صمت قليلًا وكأنما ينتظر جوابه، ثم تابع:

"يبقى الجرم جرمًا وإن حاولت تبريره بمئات الحجج، لم آت لأسرد المبررات، وإنما أتيت لأعتذر منك، لم يبقَ لي سوى أن أرجو عفوها إذ أخطأت بحقها خطأ فادحًا".

وضع شاهر الأزهار على قبر الأب، وتأمل رياحين سجى إذ أزهرت، غمر التربة بالماء وتنشق عبق نبات الريحان، لم تغن اعتذاراته، ولم تنف خطأه الذي عده بمثابة جريمة فادحة.

أدبر وقد لحقه خزي مهلك وألم مروع، لم يبرحا ظله إذ سار قاصدًا منزله؛ أثقلا كاهله، وأقحما وجدانه في جحيم لا يطيقه إنسان.

بلغ منزله، وحاول خلع ما أثقل كاهله من مشاعر مُرهِقة إلا أنه لم يفلح في نزعها، بل التصقت به وغدت جزءًا لا يتجزَّأ من كيانه، كما طفيل وجد في جسده ملجأ، وتحصن به وكأنما سيحميه بطش الأيام وغدرها، وجد الطفيل ما سيوفر له ما يقتات عليه من غذاء، وسيبيت بمأمن عن رياح غادرة قد تجرفه بعيدًا.

مضى أسبوع، ذهب شاهر لزيارة سجى حاملًا الصغير بين ذراعيه، لقيته بمشاعر فاترة، ولم يتوقع أن تلقاه بهذا البرود بل ظنها ستعانقه بحرارة، وستحمل الطفل، وتدنيه من صدرها، وتشم رائحته في نهم.

تناولت الطفل في فتور وكأنما لا تدري ما تصنع به، وضعته في حجرها كما يُوضَع الشيء، ولم تعبأ ببكائه، ولم تهدهده ليسكت، كان ذهنها غائبا في جسدٍ حاضر.

ترجَّاها شاهر لتفيق من سباتها قائلًا:

"أرجوك ردي عليَّ يا سجى".

لم تجب سوى بكلمات مقتضبة لا تكاد تتجاوز حلقها ثم تعود داخلًا لترددها من جديد. سألها:

"كيف حالك يا سجى؟"

رددت في شرود:

"بخير".

لم تبدُ بخير بل بدت كجثة جرتها أحزانها إلى بيداء مقفرة، ثم شردت في فياف لا يسكنها بشر، بل تملأها الحيات والعقارب، فلدغتها إحداها لتوافيها المنية من فورها.. توجَّب على شاهر أن يحدِّث جثة انتفت منها أمارات الحياة.

سألها محاولًا انتزاع كلمات تخبره بحالها:

"هل تأكلين جيدًا؟"

أومأت برأسها دون التفوه بحرفٍ، وبدا أنها لم تستحسن مجيئه، تابع شاهر رافضًا الاستسلام:

"وماذا عن نومك؟ هل تنامين جيدًا؟"

وأخيرًا خرقت حجاب صمتها قائلة:
"لقد انتزعت صغيري، وسجنتني في هذا المكان بين جدران كئيبة مُصمَتة، ثم تأتي لتطرح عليَّ أسئلةً تافهة؟ لن أجيب عن أسئلتك السخيفة، وإن اضطررت لأن ألزم الصمت إلى الأبد!"
ناولته الصغير، وتابعت:
"خذ الطفل ودعاني وشأني، لست أريد شيئًا من دنياكم التعسة! انتزعت حريتي، وروجت لكذبة تبرر فعلك الأخرق.. ماذا تريد مني بعد؟ حسبي أطياف تؤنس وحشتي، ولكنها سرعان ما ترحل مهما حاولت استبقاءها فيا لتعاستي! دعني وشأني يا شاهر وامضِ في طريقك مترنمًا بكذبتك النكراء حيال مرضي!"
وجم شاهر وخالط وجومه يأس وحسرة، اعتراه ضيقٌ، وتمكَّن منه، ففترت سعادته بمولوده، وفقد رضا زوجته، وبات يجهل السبيل إليه.
قال لها:
"سيعود كل شيء كما كان؛ ستُشفين وستعودين إلى المنزل، لن تمكثي هنا إلى الأبد، ستمكثين ريثما تستقر حالتك فحسب".
ضحكت سجى في استهزاء وقالت:
"أي مرض ذاك الذي ألم بي؟ لست أفهمك ولست أفهم من أي مرض مزعوم تداويني، أنا على خير ما يرام، وإن أوحت لك هواجسك بأني مريضة، لم تختلق مرضي سوى حجة تبرر انتزاعك لطفلي.. أي مسرحية هزلية تلك التي جعلتما مني بطلة لها وأطلقتما الضحكات بينما أعتلي خشبة المسرح؟! أي أكذوبة تلك التي صدَّقتها وبت تتصرف وفقًا لها؟ لقد خنت وصية والدي، وأخلفت وعدك له".

صرخ شاهر:
"لم أفعل يا سجى، بل أردت حمايتك! لقد كنت تتخيَّلين هلاوس لا وجود لها، وتلوِّحين بعصا المكنسة في الهواء بغية مطاردتها، وكدتِ تؤذين نفسك في نوباتك تلك!"
قالت سجى:
"استمر بادعائك أني مجنونة، لتكتمل خطتك لاختطاف الصغير، أليس ذلك ما ترمي إليه؟ تريد أن تتهمني بالضلال، وأن تطعن بسلامتي العقلية".
قاطعها شاهر:
"لم أفعل أيا من ذلك! وصغيرك يحتاج أن تكون أمه سليمةً معافاة".
أطلق الصغير صراخًا إذ أفزعه صوت شجارهما، فجعل شاهر يهدهده ليستكين.
قالت سجى متهكمة:
"أرى أنك قد أتقنت إسكاته.. خذه وارحلا من هنا؛ فلست أطيق سماع صوت صراخه، ولست أطيق سماع أكاذيبك المجحفة".
حمل شاهر الطفل، وغادر المشفى واجمًا، أطلق تنهيدة حارة، وتطلَّع إلى الصغير في أسى، نازعه أمل بأن الأمور ستستقر ما إن تتناول سجى أدويتها بانتظام وتواظب على العلاج بدأب.
عادت سجى إلى غرفتها لتغرق في هلاوسها مجددًا؛ جلست على الفراش، ووجَّهت بصرها إلى الجدار، لتجد الغول لها بالمرصاد..

طالعت وجهه المشوَّه، وعينيه الجاحظتين، وجسده الأسود الضخم الذي يسد الرؤية.

وجدت عينيه حمراوين كما الدم وكأنه لم ينم لأيام متتالية، كانت يداه عملاقتين ذات أوردة بارزة، وقد مدها صوبها ليبلغ جسدها المرتجف، جلست تحدِّق به وكأنما فنيت تفاصيل الغرفة ولم يبقَ سواه.. لم تشك في حقيقته قط، بل أيقنت أنه يتجهمها، ويرغب بالإيقاع بها، لم يختفِ الغول، بل اتخذ وجهًا مألوفًا لديها؛ تبدَّلت ملامحه تدريجيًا حتى اتخذ وجه مديرها المتحرش الذي نالت يده من جسدها وكرامتها.

تذكرت كيف بعثر المعتدي كرامتها، فلم يردعه شيء، وكيف تخاذلت عن صون جسدها وحمايته، فتجمَّدت ولم تتحرك قيد أنملة، جحظت عيناها فزعًا إذ تجسد الغول في هيئته، وجعلت تصرخ بقوة وكأنما لقيت سبعًا سيداهمها من فوره.

دخلت ممرضتان الغرفة، وحاولتا كبح جماح خوفها وتلجيمه برباط اطمئنان واهن، وترويض فزعها الذي كاد يدفعها لإيذاء نفسها مجددًا، إلا أنها لم تستعِد هدوءها سوى حين سرت المادة المهدئة بعروقها، وغمرت خلاياها، فصبغت واقعها بضبابية، وأسبلت غمامة على عينيها فما عادت تبصر الأشياء بوضوح، ثم فارقتها الممرضتان بعدما أضجعتاها على الفراش، واستسلمت لنوم عميق.

غرق شاهر في شعوره بالذنب، وغرقت سجى في هلاوسها، فلم يستطع أيهم انتشال نفسه من محيط قاتم ابتلعته أمواجه الهائجة.. ظلا يصارعان الأمواج إلى أن بدأ الدواء في إظهار مفعوله،

استجابت سجى لجرعة كبيرة، إلا أنها حققت استجابة لا بأس بها في نهاية المطاف؛ لم تعد تبصر الهلاوس، ولكن مشاعرها باتت متبلدة كما جدار قاس من العسير اختراقه، زارها شاهر مجددًا، فلمح التبلُّد في عينيها؛ انطفأ بريقهما، وانطفأت جذوة أمل وحياة حملتها عيناها. لم تعد زوجته التي أحب؛ بل غدت محض طيف لها لا يحمل منها سوى الشكل فحسب، أما عن روحها فأضحت منطفئة، وكأنما أخمد الدواء جذوتها التي لطالما استعرت قبل تناوله.

لم يشعر بالأنس في حضور جسدها قربه، بل افتقد روحها المفعمة بالحيوية، تساءل في نفسه: "أهذا الثمن الذي يتوجَّب عليه دفعه ليستعيد زوجته؟" راوده السؤال المحيِّر فلم يجد له جوابًا، ولكن الزمان أومأ برأسه نصب عينيه مرجحًا أن الإجابة بنعم ستكون الإجابة الصحيحة. سأل سجى ما إن أفاق من فوران أفكاره:

"هل أنتِ بخير؟"

أومأت برأسها، ثم قالت:

"أنا بخير؛ لم أعد أبصر أشكالًا يخلقها الجدار، لم أعد أبصر أشباحًا تروعني، لم أعد أبصر أطياف مَن افتقدتهم.. لم أعد أبصر سوى ما تبصرونه فحسب".

ميَّز شاهر نبرتها الآلية وأحزنته كثيرًا.. انتفت من كلماتها المشاعر، وجعلت تتلوها وكأنما تسرد عبارات حفظتها عن ظهر قلبٍ، ولقنها إياها أحدهم مثلما يلقَّن إنسانٌ آليٌّ جامد المشاعر.

قال محاولًا إخفاء حزنه خلف كلمات مُشجعة:

"إنه لأمر جيد يا سجى".

بتر عبارته فجأة، وتكلَّفت ابتسامة إذ ارتأت أنه يحاول تشجيعها، استدرك قائلًا:
"ما بكِ؟ ألست سعيدة بتماثلك للشفاء؟"

قالت:
"لا داعي للتفاؤل الزائد عن الحد، أوقن أني لن أعود كما كنت.. حسب الدواء أن يكتم مشاعري، أضحيت محض آلية تتناول ما يحجب قدرة عقلها عن رؤية الهلاوس المروعة؛ فإن تركته غرقت في خرافاتي، وإن تناولته غدوت آلية بلا مشاعرَ".
آلمه حديثها كثيرًا، إلا أنه قال مشجعًا:
"يكفي أنك اقتنعت بأنها ليست سوى هلاوس".
اجتهدت سجى لترسم نصف ابتسامة على شفتيها، وواصل شاهر طمأنتها:
"لا تقلقي؛ ستعود مشاعرك في الوقت المناسب، سيفور بركان مشاعرك مهما أطال الدواء كتمانه".
تشبَّثت سجى بطيفِ أمل منحها إياه شاهر، تمنَّت لو تعود المشاعر إلى وجدانها، فلا يبقى خاويًا كما صحراء قاحلة جرداء، حملها أمله لزيارة بساتين وروضات غرس الأمل شجيراتها بنفسه؛ فانتقت من ثمارها ما لذَّ وطاب، وحملته إلى كهوفها القاحلة لتستمتع بمذاقه ولتغرس بذوره في الأرض المقفرة علها تخضر ذات يوم.
قامت بري التربة بكلماته التي لم تصدِّقها بالأساس، ولكنها أملت أن تصدِّقها أرض وجدانها اليابسة، فتزهر وتثمر رغم كل شيء.

انتهى الوقت المتاح للزيارة، وفارقت سجى شاهرَ بعدما وعدها بزيارة أخرى عما قريب، أعادتها الممرضة إلى غرفتها لتحدق بالنافذة المُسيَّجة، وتتمنى لو يزول السياج عما قريب فتعود إلى حياتها التي باتت تثمن شتى تفاصيلها؛ باتت تثمن النور الذي يخترق زجاج غرفتها، والنسيم العليل الذي يمر ما إن تفتح الزجاج مُحمَّلًا برائحة النباتات، وأصيص رياحينها الذي افتقدته طويلًا، وحمل في عبقه ذكرى والدتها، وثياب أبيها التي لا تزال تحمل رائحته والتي اعتادت أن تشتمَّها لتستدعي ذكراه وتوقظها من سبات، ورائحة الملاءات النظيفة فور وضعها على الفراش، والتي تذكِّرها بأمها التي اعتادت تبديلها في حين عزفت هي عنه.

توسدت سجى ذكريات دافئة وأخرى مريرة.. آلمها أن دفأها قد آل معظمه إلى زوال؛ رحل مع رحيل والديها ودُفِن بذات التربة التي آوت جسديهما، تمنَّت لو يعانق منخراها رائحة الريحان؛ فتحبو الذكريات إلى عقلها وتدغدغه.. تمنَّت لو تستعيد ما مضى، فتستحيل ذكرياتها حقيقة لا مرأى فيها.

ودت لو تستعيد وجهها الصبوح الذي تتبدل ملامحه وفقًا لمشاعره لا ذاك المتبلد اليابس كما تمثال من الصخر، هوت إلى قاع حفرة عميقة، وسجنت مشاعرها في تلك الهوة، فلا أمل لها بالظهور، حاولت انتزاعها مرارًا من ذاك السجن المُشدَّد، فلم تتمكن من فك أصفادها المحكمة، والتي كبلتها لأمد تجهل مدته.

حاولت استدعاء الدموع مرة تلو مرة، فلم تجبها سوى بنضوب مآقيها، لم تصدِّق ذلك؛ فحزنها هائل الحجم عظيم الوطأة، لا يخفى عليها وهو قادر على اجترار عبرات بحجم بحار شاسعة، سلبها الدواء حركة مشاعرها فتجمَّدت، ودت لو تستعيد مشاعر

تتبدَّل كما اختلاج الأمواج، فتعلو، وتهبط، وتتعاظم، وتخفت، لم تشعر بالراحة إذ كظم الدواء دموعها، وأنهى أمر هلاوسها، وقتل انفعالاتها في المقابل. اعترتها ريبة في مدى جدواه؛ فقد استحالت مشاعرها حجرًا لا مجال لتفتيته.

مر أسبوع آخر ألحقت فيه الحياة أذاها بشاهر فلم يجد ما يحمل عنه أثقاله سوى زوجته التي تكبِّلها أغلال مرضها الذي أخبره الطبيب بكينونته: "ذهان ما بعد الولادة".

هكذا قال كما أخبره بأنه جلبها إلى المشفى في الوقت المناسب؛ إذ كادت تؤذي نفسها وطفلها في الآن نفسه، أومأ شاهر برأسه متفهما بينما ينزف وجعًا ثم سأله:

"متى تخرج إذًا؟"

قال الطبيب:

"حين تتحسن، فلنأمل أن يكون ذلك في غضون أسبوعين على الأقل".

تنهَّد شاهر حينها إذ تمنى أن تخرج في الأسبوع نفسه، اشتاق إليها مثلما اشتاق طفلها إليها، هام شاهر في حقول شاسعة يطارد أثر أيام عانقت فيها حياتهما رجاء منقطع النظير.. كم تمنيا أن يحظيا بطفلٍ، وأن ينشأ في كنفهما نشأة سليمة، وأن يتغمَّداه بالرعاية والحنان، فكان ذلك الكابوس بانتظارهما فور ميلاده.

تمنيا أن يبقيا إلى جوار بعضهما البعض، فلا يهجر أحدهما الآخر، فكانت الحياة لأمنياتهما بالمرصاد، وتكفَّلت بالتفريق بينهما في حين كان أحدهما بأمس الحاجة للآخر، بكى شاهر إذ سلبتهما الحياة أمنيتيهما في غفلةٍ منهما، وتعلَّق برجاء كاد يخيب بأن تُشفَى

سجى، وتعود إلى بيتها لتنير أركانه، ولتغرس بذور السعادة في تربة أيام طالها الجفاف، فيتكفلا بريها لتخضر أوراقها وتزهر.

"الطبيب يريدك يا سجى".

استيقظت سجى فور سماعها نداء الممرضة.. قامت بهندمة ثيابها إذ أفسد هندامها النوم، وبدت طيات غائرة في نسيجها.

قامت بغسل وجهها وتجفيفه، ثم اصطحبتها الممرضة للطبيب الذي رحَّب بها ودعاها للجلوس. سألها فور جلوسها:

"كيف تشعرين يا سجى؟"

ارتدت قناعها وقالت:

"أنا بخيرٍ".

ودت لو يدفعه ادعاؤها أنها بحال جيدة إلى الإفراج عنها والسماح لها بمغادرة السجن الذي أطالت المكوث به، فتجتمع بزوجها وصغيرها.

سألها الطبيب:

"وكيف ذلك؟"

ارتبكت سجى إذ لم تتوقَّع سؤاله ولم تدرِ ما تقول.. صمتت لبرهة بينما تستجمع أفكارها ثم قالت:

"لم تعد الجدران تستحيل خنادق تسكنها الغيلان، ولم يعد السقف آيلًا للسقوط، ولم يعد الغول يتجهمني بين الفنية والأخرى".

قال الطبيب:

"أحقًا؟ أنا سعيد بذلك كثيرًا"

تكلَّفت ابتسامة مرة لم يخف على الطبيب ملاحظتها.

قال:

"ولكنك تبدين حزينة يا سجى".

تمتمت بلعنات إذ لم تستطع إخفاء حزنها، وقالت:

"لست حزينة أبدًا؛ إنها الذكريات تخترق جدار عقلي المصفح فحسب".

قال الطبيب:

"ألا تريدين الحديث عنها؟"

تمتمت سجى:

"تبًا!"

قال الطبيب:

"هل قلتِ شيئًا؟"

كذبت سجى:

"لا.. أبدًا!"

"أرى أنكِ ترغبين بالمغادرة فحسب، وأخشى أن حديثك يفتقر إلى المصداقية".

استدركت سجى سريعًا:

"أبدًا.. أنا صادقة! كل ما في الأمر هو أن ذكريات أبويَّ تخترق ذهني من آنٍ لآخرَ، فتثير رمال عاصفة هوجاء تطيح بأفكاري وتبعثِّرها.. ولكن حديثي بشأن هلاوسي لم يكن كاذبًا أبدًا؛ لقد ضمرت بالفعل إذ طمسها الدواء".

تنهَّد الطبيب، وقال:

"أنا أصدِّقك يا سجى، ولكن شكوكي حيال كلامك لا تصب سوى في مصلحتك، ستمكثين هنا أسبوعًا آخر ريثما أطمئن إلى زوال هلاوسك".

تأفَّفت سجى، وغادرت الغرفة تغمغم بعبارات الامتعاض، إذ أرادت المغادرة وقد وأد الطبيب أملها في مهده.

وفي الشركة، سألت وئام شاهر مستفسرة عن حال سجى، فأجابها بعبرات الندم والحسرة، ندم إذ أودعها المشفى، وتحسَّر على حالتها المتردية.

لم يدرِ ما يصنع إذ اغتالت الهلاوس عقلها، وندم الآن إذ أحالها الدواء تمثالًا بلا روح، وجدها مُتبلِّدة تصطنع بسمات مزيفة.. تمنَّى لو تستعيد روحها المطلقة إلا أن إيقاف الدواء عنى عودة الهلاوس التي ستفترس حياتهما بلا رحمة.

بات حائرًا بين المطرقة والسندان، تساءل ماذا يصنع وهلاوسها تهددها بالفناء، وتبلُّدها يزعجها ويلحق الأذى بمشاعرها الفياضة.

ترى، هل قدر لها أن تعيش بمشاعر متبلِّدة أصابها الدواء بالكتمان؟ قالت وئام:

"لا عليك يا شاهر، ستستعيد سجى عافيتها وستعيشان باطمئنان وسعادة غامرة.. لن يمكث الحزن في وجدانيكما طويلًا، بل سيبرح منزلكما ما إن تختفي الهلاوس، ويحل محله فرح وحبور، سيملأ الصغير حياتكما رغدًا وإشراقًا، ستذوقان لذة حلوله ضيفًا عليكما التي لم يتسنَ لكما تذوقها بعد".

شرد شاهر بذهنه بعيدًا إذ نكأ كلامها جرحًا غائرًا في نفسه.. لم يحتفل أيهما باستقبال المولود الجديد، إذ اتشحت سماؤهما

بغيومٍ داكنة، أمطرت قطرات التعاسة، نزل غمٌّ مؤلم بساحتهما، فلم يبرحها، وانتهى إلى إيداع سجى المشفى، وإبعادها عن صغيرها.
وما إن انتهى الدوام حتى زار شاهر منزل أمه، ليجدها حاملة الصبي تطوف به أرجاء المنزل. كان الصغير يبكي بحرقةٍ وكانت عاجزة عن إسكاته.

سألها شاهر:
"ما باله يا أمي؟"
فأجابت:
"إنه يبكي بحرقةٍ مُنذُ ساعة، فلا أستطيع إسكاته".
سألها شاهر:
"هل أطعمته؟"
قالت أمه وقد انعدمت حيلتها:
"أطعمته، وبدَّلت حفاظاته، وهدهدته ليسكت بلا فائدة".
تناوله شاهر وجعل يهدهده محاولًا إسكاته دون جدوى.
قالت الجدة:
"لا فائدة يا شاهر، الصغير بحاجةٍ لأمه".
قال شاهر:
"وما العمل الآن؟"
"خذه إليها؛ عل قربه منها يفلح في إسكاته".

أخذ شاهر الصغير، وقصد المشفى في غير أوقات الزيارة، وترجَّاهم أن يسمحوا له برؤية سجى لبعض الوقت، وحين اقتادتها الممرضة إلى حيث جلس شاهر، تقدَّمت سجى بقدمين مثقلتين، وحركة بطيئة وكأنما قيدت إلى قدميها أغلال غير مرئية.

جلست إلى شاهر بينما يصدح الصغير بالبكاء بين ذراعيه، قال شاهر وقد نفدت حيله سوى من طلبه ذاك:

"لا يمكنني إسكاته.. أيمكنك حمله؟"

اعتراها تخوُّف من أن تلحق بصغيرها الأذى، إلا أنها أومأت برأسها في إذعان، تناولت الصغير بحرصٍ وضمته إلى صدرها، فهدأ صراخه شيئًا فشيئًا إذ شعر بالأمان قربها.

انهمرت دموعها وقالت في غير تصديق:

"لقد سكت! إنه يعرفني يا شاهر.. إنه يعرف أمه!"

أومأ شاهر برأسه في تأثُّرٍ، وقال:

"إنه بحاجتك يا سجى".

طالعت وجهه الصغير، وقالت:

"مرحبًا يا صغيري.. لا أطيق الانتظار حتى يجمعنا بيت واحد".

تبسَّم ثغرها بينما تهدهده وتبسَّم الصغير بدوره.. شرعت تغني له وتهزه حتى نام، مد شاهر ذراعيه لها، فناولته إياه مُكرَهة.. لم ترغب بمفارقته، وودت لو تمكث إلى جواره أبدًا، قَبَّل شاهر جبينها، وأخبرها:

"لا تقلقي؛ سنجتمع ثلاثتنا عما قريب، ستلتقينه ولن يفرِّقنا خطب، وستتكفَّلين بإطعامه وبالعناية به. أرأيت؟ إنه يعرفك!"

أومأت وفي عينيها الدموع، ثم قالت باكية:
"اعتنِ به يا شاهر".
أومأ شاهر برأسه، وحمل الطفل النائم عائدًا من حيث أتى تاركًا سجى ليمزِّق قلبها الشوق.
غمرته مشاعر جياشة من حزن واشتياق لزوجته التي تمكث خلف النوافذ المُسيَّجة، وإشفاق على طفل رضيع اضطر لإبقائه بعيدًا عنها.
كان مرور الأيام مريرًا، لاحقت شاهر هواجس مزعجة بخصوص زوجته؛ تساءل كيف تشعر.. هل شج ألم الفراق قلبها؟ وهل أضناها سلب حريتها؟ لطالما كرهت الحبس، فكيف وجدت ذاك السجن ذي الجدران المصمتة؟ كيف وجدت كتمان الدواء لمشاعرها؟
مضى الأسبوع ثقيلا، وقد أثقلت التساؤلات الكثيرة أيامه.. وحين انتهى، ذهب شاهر ليصطحب زوجته خارجًا بعدما وافق الطبيب على مغادرتها المشفى، انتظر ذلك اليوم على أحر من جمر.. جلس ينتظرها بينما يكاد الشوق يمزِّق كيانه، لم يستطع البقاء ساكنًا في مكانه، بل جعل يذرع غرفة الانتظار جيئة وذهابًا.
بلغ توتره أوجه إلى أنْ لمحها قادمة من بعيد تعلو وجهها ابتسامة مُرحِّبة، تقدَّم نحوها وضمها إلى صدره بقوة.. لم يصدِّق أنه استعاد زوجته التي كاد يفقدها في سلسلة الأحداث الأخيرة. فتحت ذراعيها، وضمته بدورها فأخبرها:
"اشتقت إليكِ يا سجى".
قالت:
"وأنا كذلك اشتقت إليك يا شاهر".

أثلجت صدره كلماتها، وتكفَّلت بنسف جبال هائلة من هموم أثقلت قلبه، وقال:
"لن يفرِّقنا خطبٌ بعد اليوم، سأبقى إلى جوارك إلى أن تزهق روحي".
ضمها من جديد، ودمعت أعينهما في خضم لقائهما المؤثر.

أردف شاهر:
"لا تبكي يا سجى، سنعيش أيامًا تفوق ما انصرم منها روعة وبهاء.. سنغرس الأمل والمودة في تربة أيامنا الخصبة، لتزهر وتثمر ثمارًا يانعة سنقطفها عما قريب".
ابتسمت سجى، ومسحت ما أفلت من عبراتها.
سألته:
"أين الصغير؟"
قال شاهر:
"إنه بانتظارك يا سجى، سيعود ثلاثتنا إلى المنزل، وسنقضي أيامًا رائعة فلا تقلقي أبدًا".
قالت:
"خذني لرؤيته، وآمل ألَّا تخدعني هذه المرة".
"لن أخدعك مجددًا يا سجى؛ فاطمئني".
غادر الزوجان المشفى، وذهبا لاصطحاب الصغير.. تناولته سجى بين ذراعيها، وضمته بقوة وكأنما تنهل من رائحته التي افتقدتها

طويلًا، وهكذا استعاد قلبها الكسير القطعة المفقودة، فاكتملت الأحجية، واكتملت سعادتها بدورها.

قالت مخاطبةً إيَّاه:

"آه كم اشتقت إليكَ يا صغيري، هل اشتقت لأمك؟"

عادت سجى برفقةِ زوجها إلى المنزل، وقد استعادا طفلهما ليكبر في كنفهما، ولينعم بحنانهما.. فأغدقا عليه عطفًا وحبًّا جارفًا في سنوات عمره الأولى، عله ينشأ سويًّا في بيئة تكفَّلا بغرس الوئام في تربتها الخصبة، وريه بماء وفير لتخضرَّ أوراقه ويزهر.

مضت خمس سنوات كبر فيها الطفل، وغدا مشاغبًا صغيرًا.

وذات مرة، كان بصدد لعب الكرة في الردهة التي لطالما نهته أمه عن لعب الكرة بها، كانت سجى جالسة بغرفتها تطالع كتابًا، وفجأة سمعت صوت تحطم آتٍ من الردهة، فهرعت إليها لتجد الطفل وقد ارتسمت على وجهه أمارات الفزع مستعدًا لتلقِّي التوبيخ، حطَّم الصغير أصيص الرياحين أثناء لعبه الكرة بالردهة.. أطلقت سجى شهقةَ فزعٍ ما إن أبصرت حطام الأصيص على الأرض، وجثت على ركبتيها لتلتقط القطع المكسورة وما إنْ حملت بعضها بين كفيها، وتيقَّنت مَن تحطَّم أصيصها الأثير حتى غرقت في نوبة بكاء مرير.

طالعت الطفل الذي تمكَّن منه الرعب، وصرخت به:

"ماذا فعلت؟ ألم أنهك عن لعب الكرة في الردهة؟"

استسمحها الصغير عذرًا:

"أنا آسف.. لم أكن أقصد".

أخذت سجى تجمع القطع المتناثرة في خضم انهيارها، وأتى شاهر مسرعًا إثر سماعه صراخها وسألها:

"ماذا حدث؟"

فطن إلى حقيقة ما وقع بعد رؤيته حطام الأصيص على الأرض.. جلس إلى جوار سجى المنكفئة أرضًا تجمع الحطام، وشاركها جمعه، وتطرَّق إلى مسمعه صوت نحيبها وأنفاسها المضطربة، علقت في كابوس حيٍّ فلم تصدِّق ما جرى.. أجبرها تناثر الحطام ووخزه لكفيها على تصديق ما وقع، وكان وقع ذلك في نفسها مرًّا؛ فجعلت تذرف دموع الحسرة، وأذكى الألم نيرانًا نشبت بصدرها.

لم تفلت صرخاتها بل كظمتها، فاختفت خلف حسرة مطبقة، نظرت إلى الطمي المتناثر أرضًا وإلى نباتات الريحان التي تناثرت بدورها.

أخبرها شاهر محاولًا التهوين من مصابها:

"لا عليكِ، سنشتري أصيصًا غيره".

قالت بينما تمسك بالحطام المُفتَّت الذي جرحت حواف قطعه الحادة يديها:

"لا أريد سوى أصيص أمي!"

قال شاهر محاولًا شرح الأمر لها:

"سجى، لم يكن الريحان سوى رمز للعلاقات التي يجدر بك ريها باستمرار لتبقى خضراء يافعة ولا تذبل، لا أظن صراخك بصغيرك يرضي أمك كثيرًا.. نباتات الريحان حية داخلك، وعلاقتك بطفلك هي إحدى العلاقات التي يجدر بك العناية بها لتبقى حية كما شتلات الريحان المزهرة في وجدانك؛ فلا تفسدي تلك العلاقة

فتذبل أوراقها وتهوي. لن ينبت الريحان سوى بتربة طينية خصبة، ولن تورق علاقتك بطفلك سوى بتربة يملأها الأمان والحب غير المشروط".

أفلحت كلماته في تهدئة سجى التي طالعته بعينين تملؤهما الدموع.. تابع:

"لا تجعلي خطأ عارضًا من صبي ساذج يفسد علاقتكما، دعيها تزهر ما بقيت، ولا تجتثيها من تربة الحب؛ إذ لم ينتهِ أوان رعايتها".

حاولت سجى ضبط أنفاسها، وضمت صغيرها المذعور إلى صدرها، وقبَّلته وفي عينيها الدموع، فضمر خوفه وهدأ.

تناولت النباتات المتناثرة أرضًا، وهبت واقفة ثم غادرت المنزل دونما كلمة..

قصدت سجى قبر أمها لتزرع نباتات الريحان التي كانت بالأصيص في التربة الملاصقة للقبر.

حفرت لها موضعًا وأحزنها أن بعضها لا يمكنه الانتصاب بمفرده.. وبعدما أنهت دس النباتات في التربة، وغمر أسفلها بالتراب، حدَّثت أمها قائلة:

"ليتك هنا يا أمي!

اشتقت لحضنك الدافئ، ولشعور الأمان الذي يغمرني بقربك، هذه نباتات الريحان، أمانتك، وها قد جلبتها لكِ إذ لم أستطع الاعتناء بها كما سبق واعتنيت بها.. فلتنمُ في كنفك؛ وهذا أفضل لها، أوقن أنها تشتاق إليك وإلى لمساتك الحنون".

خنقتها العبرات إذ تابعت:

"آسفة يا أمي؛ فلم أفهم الرمزية البليغة لنباتات الريحان التي ذكرتها في وصيتك سوى الآن، إلا أني أعدك بأنْ أحاول جعلها نبراسًا يقودني إلى فعل الصواب من الآن فصاعدًا".

أدركت سجى أن علاقاتها هي الرياحين المذكورة بالوصية، وأن عناق الرياحين لم يعد مستحيلًا، يوما ما ستعانق مَن غطاهم التراب، ويجدر بها معانقة مَن تجمعها بهم علاقات طيِّبة وقوية.

حمل عبق الرياحين علاقات طيِّبة زكية لا يشوبها سوى ما يشوب شتى العلاقات من كدر سريع المرور.. سرعان ما تصفو صفحتها، فلا يعود يكدرها خطب.

زرعت سجى مزيدًا من الرياحين بأصيص جديد، وضعته قرب النافذة، وواظبت على تنشُّق عبقها الزكي كل صباح، وذكَّرها اخضرارها بما يجدر بها فعله إزاء العلاقات.. ستعانق أوراق رياحينها رياحين أمها يومًا ما.

قد تغادر الحياة وتبقى الرياحين لتذكِّر صغيرها بأهمية العلاقات وضرورة توليتها عناية خاصة.

دلف نسيم عليل من النافذة ليحمل عبق الرياحين إلى منخريها، ابتسمت ولامست الأوراق تداعبها بأناملها في هيام، تنهَّدت حين تذكَّرت أمها إذ حمل العبق ذكراها، وخلدها في هبوبه ومروره الطيِّب، تناست ذكريات أليمة تقرع باب ذاكرتها بين الفنية والأخرى، واستبدلتها بأخرى مورقة ذات عبق زكي كما الرياحين.

لم ينتهِ أمر الذكريات المؤلمة رغم كل شيء، إلا أنَّ حسها المرهف ونفسها التواقة للأمل انتقيا تخليد الذكريات المفعمة بالأمل، طيِّبة المذاق كما الشذى، ربما رحل والداها إلى العالم الآخر إلا أن

أثرهما لا زال خالدًا في نفسها، يضيء جنباتها، ويملأها حياةً وتفاؤلًا، ستبقى الذكريات ما بقي عبق الرياحين، وستتعانق الرياحين أخيرًا مهما طال البعد، ومهما تحطَّم الأصيص مرارًا، سترشف سجى من شذى علاقات ندية، وستقرع أبواب علاقات جديدة، وتختبر جدوى بقائها. قال لها شاهر حين انتبه إلى ازدياد اهتمامها بالرياحين:

"أراكِ، وقد غدا اهتمامك بها طقسًا مُقدَّسًا".

رمقته بابتسامة، فضحت مكنون نفسها، وقالت:

"إنه وصية أمي؛ فلا يمكنني التغافل عنه.. إنه حصن علاقاتي وما يذكِّرني بأهميتها، لا يسعني سوى الاعتناء به في دأب".

قال شاهر:

"ليس سوى رمز لعلاقاتك يا سجى، ولن يسفر الإسراف في ريها سوى عن موتها".

رمقته بنظرة نارية معاتبة وقالت:

"لن تموت، ستبقى لتذكرني بأن أولِّي علاقاتي أهمية خاصة".

لم يجادلها شاهر إذ علم أن جدالها لن يسفر عن نتيجة يرجوها، نهض من مكانه وضمها إلى صدره فبكت.

قال مطمئنًا إياها:

"لا تخافي يا سجى.. سأمكث إلى جوارك ولن أبرحه".

قالت بينما تذرف دموعًا طال كتمانها:

"كذلك قال والدي، ثم تركني وحيدة في العراء أنهل من حميم التعاسة، وآكل أشواك الألم، وأحتسي مرارة الفقد! لم يفِ بوعده،

وترك جواري بعدما رجوته ألَّا يرحل.. رحل رغم كل شيء ولم يأبه بتوسلاتي الكثيرة!"

قال شاهر:

"لقد استودعك إياي، ويبقى الموت ضيفًا ثقيلَ الظل ينتزع أحباءنا في غفلةٍ منا.. لن يمنع ريك لنباتاتك تلك حلول الموت مهما أسرفتِ فيه، اصبري؛ فسرعان ما تنقضي آجالنا، وسرعان ما ستتعانق الرياحين، اصبري وإنْ تكالبت على وجدانك أمواج الذكريات العاتية".

انخرطت سجى في نحيبٍ مستمر عقب إدراكها حقيقة الأمر، اشتاقت إلى عناق الرياحين، وتوسَّمت أنْ يتحقَّق يومًا ما. جادت بدموعها ولم تبقَ في مدامعها أيٌّ منها.

أتاها صغيرها وحملته، وتركته ليعبث بالأوراق.

سألته:

"أليست جميلة؟"

أومأ برأسه موافقًا، وقال:

"أنتِ تحبينها كثيرا يا أمي".

تبسَّمت وسألته:

"وماذا عن رائحتها؟ ما رأيك بها؟"

اشتمَّ الصغير الأوراق، وقال:

"إنها رائعة! ما أزكاها من رائحة! أريد واحدة منها في غرفتي".

تبسَّمت سجى، وسالت دموعها، لقد راق للصغير عبق الرياحين حتى رغب بمثل تلك النباتات في غرفته.

قالت سجى بين دموعها:

"قريبًا سيكون عليك الاهتمام بها".

ناولته إبريق الماء، وأمسكت بيده لتجعله يرويها، قاما بصب الماء ثم أعادا الإبريق إلى مكانه، انهارت سجى، وأنزلت الصغير، مسحت دموعها؛ خشيةً إخافته، وقال الصغير:

"لماذا تبكين يا أمي؟ هل هناك مشكلة؟"

قالت مُدَّعية التماسك:

"أبدًا يا صغيري، ليست هناك مشكلة قط.."

"لماذا إذا تبكين إلى جوار ذاك الأصيص دائمًا؟ أما زلتِ حزينة لأني حطمت أصيصك القديم؟"

لم تعرف كيف تشرح له علاقتها بتلك النباتات، فلن يفهم الأمر مهما فعلت لحداثة سنه.. وآلمها أن شعور الذنب لتحطيمه أصيص أمها لا زال ينازعه.. قالت:

"لا يا صغيري، الأمر لا يتعلَّق بك وإنما.."

تدخَّل شاهر، وتناول يد الصغير قائلًا:

"ما رأيك ببعض الحلوى؟"

تهلَّل وجه الصغير، وقال:

"سيكون ذلك رائعًا"

أخذه وغادرا المنزل ليتيح لسجى مساحة للبكاء.

فكَّرت:

"كان شاهر على حقٍ.. لم أفهم الرمزية البليغة لأصيص الرياحين".

أيقنت أنه ثمة أمل بعناق قريب.. ستقطع مفازة طويلة، وستذرو العواصف الرمال بوجهها إلا أنها ستبلغ خط النهاية في نهاية المطاف، ستمضي ولن تعبأ بالصعاب على الطريق إلى أنْ تعانق مَن فقدت في نهايته حين يضحي عناق الرياحين حتميًّا.

وفي طريقها إلى عناقها المرجو، سيضمر خوفها حتمًا، وستزهر شتلات الأمل في بستانها الرحب الذي تسوده نباتات مورقة، سترتع جزلة بين كثبان خضراء وأشجار كثيفة تشكِّل عالمها الذي اصطبغ بصبغة الأمل، ستتخذ من ظلال تلك الأشجار مرتعًا وملاذًا من شمس خطوب الزمان الحارقة.. ستمضي أيامها واثقة بوجود عناق أخير يترصَّدها في نهاية الطريق، اشتاقت إليه ولم تعد تطيق انتظاره.. إنه عناق الرياحين.